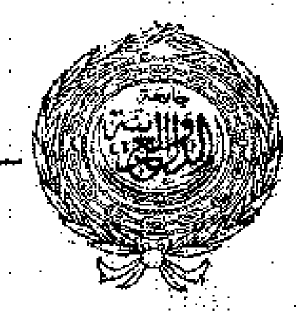


معهد البحوث والدراسات العربية

محمد فريد وجدي

حياته وآثاره

١

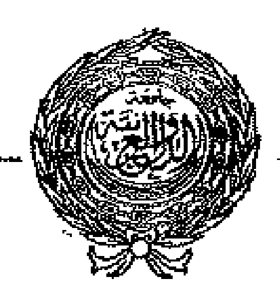
الدكتور محمد طه الحاجري

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القباني
الإسكندرية



معهد البحوث والدراسات العربية

محمد فريد وجدي

حياته وآثاره

١

الدكتور محمد طه الحاجري

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت الكتابة عن « محمد فريد وجدى » تعريفاً به ، وتصويراً لحياته وتحليلا لآثاره ، وبياناً لأثره فى كثير من جوانب الحياة فى عصره . أمنية من أعز الأمنيات التى كانت ما تزال تراودنى ، وأود لو استطعت أن أتوفر على تحقيقها ، على الوجه الأمثل . وكلما امتد الزمن اشتد إلحاحها على ، إذ كان ضباب النسيان الذى جعل يتكاثف بسرعة حوله ، يوماً بعد يوم ، مما يجعل تحقيق هذه الأمنية — ولو بصورة مقاربة — من ضرورات حياتنا الفكرية .

ثم كان — فيما احسب — من أسباب إلحاح هذه الأمنية على أن فريد وجدى يمثل فى ذاكرة هذا الشيخ الذى مازال يلتمس متعته فى مراجعة صور حياته الأولى ، صورة من أول هذه الصور وأجملها وأعزها ، منذ نصف قرن من الزمن تقريباً .

وكان أول ذلك فى صيف سنة ١٩٢١ وقد عاد ذلك الصبى الذى كان يتطاول إلى الشباب إلى مدينته الصغيرة فى الصعيد الأدنى ، فى أول إجازة صيف ، مزهواً بما تلقى فى القاهرة من علوم الكبار ومعارفهم ، سعيداً بما يحمل فى صدره من ذكريات عامه الأول فيها ، وما أتيح له من ألوان الحياة القاهرية التى تضطرب بمشاهد النشاط الأدبى والعلمى والسياسى فى ذلك العام الحافل بالحماسة الدافقة ، تغمر النفوس ، وتؤجج فيها نوازع الطموح .

وكان ابو الصبى يجلس فى الأصائل إلى المكتبة الوحيدة فى تلك

المدينة، وكان صاحبها رجلا سودانياً طلى الحديث . وخاصة حين يتحدث عن السودان ، ويروى أحداثه ، ويشرح وجوه قضيته ، ويذكر ذلك المؤلف الضخم الذى عالج فيه هذه القضية ، والذى كان ما يزال مخطوطاً . وكان أبو الصبى يصطحب صبيه أحياناً معه فى مجلسه هذا .

وكان الجلوس فى هذه المكتبة مع روادها ، والاستماع إلى أحاديثهم التى كانت تتراوح بين السياسة والأدب ، يرضى غروره ، ويهيج فى نفسه الرغبة فى القراءة والتطلع إلى المعرفة ، يلتمسها فى كل ما يمكن أن يقع له .

وكان مما عرض له فى هذه المكتبة ، وشجعه أبوه على قراءته . مجلة صغيرة اسمها « الوجديات » قوامها قصة خيالية ، فى صياغة جميلة وأسلوب رفيع ، يجمع بين جزالة اللفظ وموسيقية العبارة . مما كان يزدهى صبياً مثله ، شديد التوثب أن يقرأه ويتفهمه ويتذوقه ويظل يردده .

وقد استولت هذه المجلة على إعجاب الصبى . فما كاد يعود إلى القاهرة بعد انتهاء الإجازة . حتى جعل يلتمس أعدادها . مقبلا على قراءتها وتذوقها . وقد صار اسم صاحبها من أول الأسماء التى تثير فى نفسه مشاعر الحب والإجلال .

فما يكاد يعلم أنه يصدر دائرة معارف ، وأنه يتيحها للقراء فى أجزاء شهرية . حتى يسارع إلى قيد اسمه بين مشتركيها . وما يزال يذكر الفرحة التى كانت تغمره حين كان يمضى إلى مكتب البريد كل شهر ، ليتسلم ذلك الجزء ، ويطير به إلى البيت ، فيفك رباطه ، ويزيل غلافه ، ويقبل عليه قارئاً ، يلتهم مواده التهاماً .

ويعلم أيضاً فى ذلك الوقت أن له كتاباً ظهر قريباً ، يدعى «على أطلال المذهب المادى » . فيقبل عليه . وإذا هو يعرض عليه عالماً جديداً من المعرفة يختلف اختلافاً تاماً عن ذلك العالم الذى كان يعيش فيه ، إذ ذاك ، فى تلك الحلقات ، وبين هاتيك الكتب ، وإذا هو بأسلوب جديد يختلف عن الأساليب التى عهدها . فهو أسلوب علمى بموضوعه ودقته أدبى بجمال صياغته ، وحرارة عبارته ، وبذلك كان يجمع بين المتعة الفنية والمتعة العقلية .

وهكذا استولى محمد فريد وجدى على ذلك الشاب ، فهو يحيا أكثر وقته معه ، يقرأ كتبه مرة وحده ، ومع أصدقائه الذين يشاركونه نوازعه الأدبية والفكرية مرة أخرى . فإذا أراد أن يتخذ سبيله إلى الكتابة ، وجد نفسه يجرى فى ميدانه ، معالجاً من الموضوعات ما كان يعالجه؛ فهو يكتب ذات مرة سلسلة مقالات يحمل عنوانها : « فى عالم الروح » ، ويكتب مرة أخرى سلسلة عن « خطورة الدين ونشأته وتطوره » . إلى غير ذلك من الموضوعات التى كان يستوحيها من ذلك العالم العقلى الذى كان يعيش فيه .

ثم تفتر ، بعض الشىء ، صلة ذلك الشاب به ، بعد أن دخل الجامعة واستهوته أنماط أخرى من الدراسات الأدبية . ولكنه يظل مع ذلك وفياً لتلك الفترة من حياته ، فما يكاد يظهر كتاب له ، أو بحث فى مجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف ، حتى يقبل عليه ، ويعود به إلى ذكريات تلك الفترة .

حتى إذا ما أصبح ذلك الشاب شيخاً تسيطر عليه نوازع الحنين ، ولم يكد يبقى له من متاع الحياة إلا أن يراجع ماضيه ، ويستعيد أيامه الأولى ويحيط نفسه بصور الذكريات ويستمتع باستجلائها ، ويتزود بطيباتها

فقد أصبحت ذكريات تلك المرحلة ملء خياله، تغاديه وتراوحه، وتلح عليه إلحاحاً متصلا أن يجلو للناس تلك الصورة الرائعة التى تتوسطها .

هكذا كان شأنى مع « محمد فريد وجدى » .

فإذا عرض على معهد الدراسات والبحوث العربية أن أشارك فى بعض نشاطه، مثلت أمامى تلك الصورة تحف بها ذكريات عزيزة . ولكن يتعاظمنى أمر درسها، وجعلها موضوع محاضراتى فى هذا المعهد فما أبعد الفرق بين الشيء تستمتع بذكراه، وبينه موضوع درس جاد وتحليل دقيق واستقصاء تام .

ويدور حوار طويل فى نفسى بين الاستجابة لإلحاح الرغبة الكامنة فى أطواء هذه النفس، والمبادرة إلى تحقيقها، وبين الانتظار حتى تتوفر لى أدوات البحث ووسائله . ولكنى أرانى أخيراً أردد كلمة برونتيير : إن المرء لن يفعل شيئاً إذا هو ظل ينتظر دائماً .

فأبادر إلى جعل « محمد فريد وجدى » موضوع محاضراتى، ويتيح لى هذا أن أعود إلى مصاحبته فى مراحل حياته، حتى يبلغ الحادية والثلاثين من عمره، راجياً أن أصحبه فى سائرها فى العام القادم إن شاء الله، هو وحده ولى العون والهادى إلى سواء السبيل .

المقدمة

دراسة شخصيات الرواد فى النهضة الإسلامية والعربية الحديثة تعد من أول الدراسات التى عنى هذا المعهد بها ، وتوفر عدد غير قليل من أساتذته عليها ، إذ تسهم — إلى حد بعيد — فى تحقيق رسالته ، وإلقاء الضوء على جوانب هذه النهضة . وقد شارك بقسط غير صغير فى هذا الوجه من وجوه جلاء الشخصية العربية ، بما قدم من دراسات فيه ، تتناوله فى غير واحدة من جهاته ، وفى عدد من أقطار العروبة .

والشخصية التى نرجو أن نتوفر على درسها ، أو درس بعض جوانبها هذا العام ، هى شخصية رجل من أقوى هؤلاء الرواد ، فى جهات مختلفة وإن كان أول هذه الجهات وأقواها وأشدها سيطرة على سائرها هو الإصلاح الدينى . وكان له فيه رأيه ومنهجه ووجهة نظره . وقد جمع له نفسه ، وأخلصها له ، وأمدها من أجله بكل ما استطاع أن يمدها به . ولبث على ذلك طيلة حياته ، منذ استطاع أن يمسك بالقلم ، ويخرج على الناس فى صورة الكاتب الباحث . فى أواخر القرن التاسع عشر . إلى أن غلبته السن ، فأخلد الى الراحة ، وانقطع عن الحياة العامة ، قبيل وفاته سنة ١٩٥٤ .

وبالرغم من هذه الحياة الطويلة الحافلة بألوان النشاط والتى كادت تبلغ الستين عاماً ، وبالرغم مما كان لصاحبها من صوت مدو فى كثير من مجالات الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية — إذا نحن تجاوزنا مشاركته المحدودة فى الحياة السياسية — فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وبالرغم من المكانة التى كان يتمتع بها فى كثير من

الاوساط الدينية والعلمية ، فإن ضجيج الحياة الصاخبة المضطربة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ، وهو الضجيج الذى سيطر على كل نواحى الحياة المصرية ، وغلب على كثير من الأصوات التى كانت تتردد أصداؤها — من قبل — فى كل مكان ، طغى على ذلك الصوت الوقور المتزن الذى كان ملء الأسماع ، صوت محمد فريد وجدى ، وإن ظل مع ذلك مشاركا مشاركة جادة فى كثير من ألوان النشاط ، مؤدياً واجبه فى الإدلاء برأيه والاحتجاج له ، كاتباً بارع العبارة قوى الحجة مبسوط الأداء .

ذلك أن الرجل كان — بالرغم من كل هذا الذى ذكرنا من مشاركته فى ألوان النشاط المختلفة فى حياتنا المصرية — ذا طبيعة انعزالية من طراز خاص . ولعله يتاح لنا ، فى هذه الدراسة ان نتبين حقيقة الانعزالية وأسبابها وعواملها ، وأن نتعرف إلى بعض مظاهرها . وهذه الانعزالية كانت فيما نحسب من أسباب ذلك النطاق الذى ضربه النسيان عليه ، وما يزال يغشى حياته شيئاً فشيئاً ، حتى انتهت تلك الحياة . وما يكاد أحد من أبناء هذا الجيل يعرف من ملامح هذه الحياة شيئاً إلا ما قد يتناثر هنا وهناك من أقوال عارضة ، أو كلمات شاردة .

ونعنى بانعزالية الرجل أنه كان يعيش فى عالمه العقلى بما فيه من مثل وآراء ومبادىء أكثر مما يعيش فى عالمه الخارجى . بل نحسب أنه كان يحاول دائماً أن يخضع هذا العالم الخارجى لعالمه العقلى أو على الأقل يحاول التوفيق بينهما . وبديهى أنه لم يكن غافلا عن العالم الخارجى أو جاهلا بشئونه وأحداثه ، بل كان يعرفه كل المعرفة ، بجميع دقائقه وأسراره ولولا ذلك ما حاول أن يخضعه لعالمه العقلى . مطبقاً عليه آراءه ومبادئه .

وقد عرض الأستاذ عباس محمود العقاد صورطريفة من هذه الانعزالية ، ولم

يكن الرجل قد دخل بعد نطاق النسيان . بل فى الوقت الذى كان فيه من أصحاب الاصوات العالية فى كثير من الأوساط . ومن ذوى الشهرة الغالبة فى المجتمع المصرى والإسلامى عامة ، وقد جاءت هذه الصورة فى سياق الفصل الذى كتبه عنه ، بين الفصول التى كان يكتبها فى مجلة « المجلة » بعنوان : (رجال عرفتهم)[1] . وقد استهل هذا الفصل بقوله :

« هو فريد عصره غير مدافع ... وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبليت وأصبحت حروفاً بلا معنى ... واطالما قيلت فى عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد ، كلهم فريد عصره ، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات ، فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصفات ، ولا سيما صفات الرجحان والامتياز . إلا أننا نقولها اليوم عن « محمد فريد وجدى » لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفاً حرفاً ولا ينحرف عنها قليلا ولا كثيراً حتى فى لغة المجاز .

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الأقلام ، ورجال الحياة العامة . فلم نعرف أحداً منهم يماثله فى طابعه الذى انفرد به ، فى حياته الخاصة والعامة ، وفى خلقه وتفكيره ، وفى معيشته اليومية أو معيشته الروحية . وأوجز ما يقال عنه فى هذه الحالات جميعاً أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته ، كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل الفريد » .

أما هذه الصورة التى مثل بها الأستاذ العقاد انعزاليته فقد جاءت فى قوله :

---

(١) نشرت هذه الفصول فى « كتاب الهلال » ، أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

« روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربى، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، أن السيد عرض عليه الزواج ، فقال . إن جمال الدين ، وهو متزوج ورب أسرة وصاحب بيت يأوى إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال ، أغرب من صورة الشيخ عليش ، وهو يسعى إلى الأزبكية ، ليجلس إلى حانة من حاناتها ، ويصفق بيديه يستدعى الجرسون ، ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات .

أقول: إنى قد رأيت بنفسى فى الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين وهو منظر الأستاذ محمد فريد وجدى يتمشى فى قلب الأزبكية بين المتاجر والحانات ، وهى لا تدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام ولعله هو أيضاً لا يدرى أن هذه هى الأزبكية ، إلا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام .

فقد كان السير على الأقدام من رياضات الرجل قبيل الأصيل كل نهار فكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه ، تارة إلى مفازة الخلاء ، وتارة أخرى إلى حى السكة الجديدة ، وحينا إلى قصر النيل ، وحينا آخر إلى شارع جلال أو عماد الدين ، لا يحس من يراه فى مكان من هذه الأمكنة ، وهو ينظر إلى ملامح وجهه ، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه ، كأنه — لانطوائه على نفسه — يتمشى فى عالم السريرة ، ولا يتمشى فى عالم العيان . . . » إلى آخر هذه الصورة الطريفة التى يجلوها فن العقاد ، والتى علق عليها بقوله :

« إنى اليوم لأشعر أنه منظر عجب غاية العجب . منظر أعجب من منظر جمال الدين رب الأسرة والدار ، أو منظر الشيخ عليش جليس القهوة والبار » .

ومهما يكن من أمر هذه الصورة ، ومبلغ ما فيها من غفلة الرجل عما

حوله ، واستغراقه فى نفسه ، من مطابقة للحقيقة ، أو انحراف عنها ، استسلاما للنزعة الفنية فى تصويرها ، فإنها تقدم الينا — على كل حال — صورة من انعزاليته أو إنطوائيته .

وإذا كان لهذه الانعزالية ، بالمعنى الذى حررناه وأوجزنا شرحه قبل قليل ، مظاهرها فى حياته اليومية ، على النحو الذى يذكره الأستاذ العقاد ، فقد كان لها مظاهرها فى حياته العامة ، كما كان لها ـ ولا ريب ـ أثرها فى تكاثف ستار النسيان حوله يوما بعد يوم .

لقد نشأ ، وهو بعد فى أوائل شبابه ، حيث سلطان اللهو والجرى مع متع الحياة غالب شديد ، على إيثار عالمه العقلى على ما يزخر به العالم الخارجى من متع ولذائذ ، كما نرى مصداق ذلك فى بعض ما كتبه فى كتابه الأول : « الفلسفة الحقه فى بدائع الأكوان » . وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره . على النحو الذى نتبينه ، إن شاء الله ، عندما نعرض للحديث عن هذا الكتاب .

ولعل هذا ، أو ما هو بسبيل منه ، هو الذى صرفه عن الانتظام فى الدراسة المدرسية ، ونيل درجاتها ، مع ما تؤهل له من مناصب الدولة . بل لقد أتيح له ـ كما يذكر ذلك بعض من كتبوا عقب وفاته ـ أن يصبح موظفاً فى وزارة الأوقاف مرة ، وفى ديوان الخديوى مرة أخرى ، ولكنه لم يلبث فى كل من هذه الوظيفة وتلك أن ضاق بها واعتزلها ، وانصرف إلى عالمه الذى يؤثره ولا يكاد يرى سواه[1].

وقد دخل الحياة العامة فى أوسع صورها ، حين استطاعت مبادىء الحزب الوطنى أن تجتذبه إليها ، فإذا هو عضو من أعضاء ذلك الحزب ،

---

(١) ذكر تعيينه فى الوظيفة الأولى عبدالحميد جلال (صحفى قديم) ، كما ذكر الحاقه بالثانية محمد يوسف خليفة . ولم نعرف ذلك عند أحد غيرهما . وسنشير إلى مقاليتهما بعد .

وإذا هو يصدر جريدة الدستور التى كان الناس ينظرون إليها على أنها اللسان الثانى للحزب ، بعد جريدة اللواء لسانه الأول ، وجدير بهذه الصفة أن تضفى عليه غير قليل من الجاه . ولكن هذا الجاه أمر لاقدر له عنده ولا وزن له بإزاء المبادىء والمثل التى تعيش فى عالمه العقلى . فها هو ذا يختلف مع رئيس الحزب ولجنته الإدارية ، فى أمر من الأمور التى تمس المبدأ ، ويصر على رأيه ، ويفتر بسبب ذلك مابينه وبين الحزب ، ويفسد مابينه وبين كثير من أشياعه وأتباعه ، وتتأثر بذلك صحيفته ، ويتعرض ذلك الجاه للتراجع ، ولكنه لايعبأ ، ويمضى فى طريقه ، وليكن مايكون .

ويقع ذلك الخلاف بين الخديوى عباس حلمى الثانى ، ونقيب الأشراف السيد محمد توفيق البكرى ، لمنعه خروج أصحاب الطرق الصوفية بمواكبهم للمشاركة فى أحد الاحتفالات ، فيقف وحده فى ذلك الخلاف ، بجانب السيد توفيق البكرى ، وقد تخلت جميع الصحف والهيئات عنه ، انتصاراً لما يراه من بدعة المواكب الصوفية وإشراكها فى الحفلات والأعياد . وهو يعلم أنه يعرض نفسه بذلك لغضب القصر وكيده له ، وليس له فى الحزب ركن ركين يعتصم به ، ولكنه لايعبأ ، مادام يتصرف فى حدود المبدأ الماثل فى عالمه العقلى . ويرسل إليه السيد توفيق البكرى مبلغاً من المال ، مكافأة له على هذا الموقف . وكانت الجريدة تعانى أزمة مالية شديدة ولكن هذه الأزمة لاتكاد تعنيه فى شىء بقدر مايعنيه عالمه العقلى الذى يصدر عنه . فلا يفعل أكثر من أن يأخذ من هذا المبلغ قيمة الاشتراك فى الدستور . ويرد الباقى إليه .

ويقع الانقلاب العثمانى ، ويحتاج حزب تركيا الفتاة ، وهو الحزب الذى طالما نوهت به جريدة الدستور ، إلى صحيفة تكون لسانه فى العالم العربى ، ويقع اختياره على جريدة الدستور لمكانة صاحبها فى العالم الإسلامى ، ولما يعلم من حسن رأيه فيه . ولعله كان يقدر أيضاً الموقف

المالى الذى كانت تعانيه ، فيبعث إلى محمد فريد وجدى من يعرض ذلك عليه ، لقاء مبلغ شهرى كبير . ولكنه يرى فى هذا العرض شيئاً يأباه عالمه العقلى ، وإن كانت اعتبارات العالم الخارجى ترحب به ، فلا يلبث أن يرفضه .

وهكذا كان اعتزازه بمبدأه ورأيه وعقيدته ، أو بعالمه العقلى الذى نشأ قوى الصلة به ، كبير الوفاء له . وهكذا كانت مغالاته بهذا العالم ، بحيث تضعه فوق كل اعتبار ، ولو تجرد فى سبيل ذلك من كل سلطان ، وتخلى عنه كل ذى منزلة أو جاه .

ويحدث ذلك التطور الكبير فى المجتمع المصرى بعد الحرب العالمية الأولى ؛ ويمضى ذلك التطور حثيث الخطى ؛ ويصبح الكلام عن حجاب المرأة أضحوكة ؛ وأشد الأقوال أثارة للسخرية ومبعثاً للتهكم؛ وتضيع فى ذلك حقائق الأمور وتنبهم حدودها ؛ ويكتب «الصحفى العجوز» ذات يوم من أيام سنة ١٩٣٢ مقالا فى جريدة الأهرام يتحدث فيه عن الحركة النسائيه ، ويذكر كتاب محمد فريد وجدى : « المرأه المسلمة » ؛ ويصفه بانه ضد تعليم المرأه وتطورها ؛ فينبرى للرد عليه ، منكراً فريته الخليطة أنه كان يدعو إلى عدم تعليم المرأة ؛ مستنداً إلى فقرات من كتابه . وأما سفور المرأة فيقول عنه فى رده هذا : « أما عدم سفورها فانا لاازال أقول به وقد زدت شدة عما كنت عليه أضعافاً مضاعفة » .

فها هو ذا لايبالى ، هنا أيضاً ، بسلطان الرأى العـــام ؛ وأى سلطان هو !

وهكذا انقطع مابين الرجل ومعاصريه ؛ ومازال الحجاب الذى يقوم بينه وبينهم يكثف يوماً بعد يوم ، حتى قضى نحبه ولا يكاد يذكره أحد ، إما جهلا بآثاره ووجوه نشاطه التى كانت يوماً من الأيام

ملء السمع والبصر ، ومهوى العقول والقلوب ؛ فى أكثر البيئات الأدبية وأما لأنه لم يعد يثير فى نفوس أبناء جيله ، أو تلاميذه ومريديه ، مايحفز على الكتابة عنه ، والتنويه به . وقد أشار الأستاذ العقاد فى ختام ذلك الفصل إلى هذا الذى صارت اليه ذكراه ، فقال : « إن يكن اليوم لايذكر حق ذكراه ، فما هو بالخمول ، ولاهو بالقصور عن حق الخلود ، ولكنه يعيش فى عزلة عن دنيا التاريخ ، كما عاش أيامه فى عزلة عن دنيا الحياة » .

وإذا كانت عزلته عن دنيا الحياة أمراً لاحيلة لأحد فيه ، إذ يرجع إلى طائفة من الأسباب التى جعلته حتما مقضياً . ثم هو - بعد ذلك - كان جزءاً من ملامح حياته ، وقسمات شخصيته ، ولعله كان - فى الوقت نفسه - من أول حوافزه ومثيرات نشاطه فى أداء مارأى نفسه مهيأ له ، موجها إليه إذ أخلصه له ؛ ووفرة عليه ؛ فإن عزلته عن دنيا التاريخ أمر لامساغ له فيما يجب علينا لقاء حياتنا الادبية ، وتاريخنا العقلى ، ومثلنا القومية . وهو اثم كبير لاريب أننا نحمل جريرته ونبوء بتبعته مادمنا نستطيع أن نخرجه من هذه العزلة ؛ فنجلو بذلك صفحة مجيدة من صفحات حياتنا العقلية والادبية .

على أن درس حياة محمد فريد وجدى على الوجه الذى يرسمه المنهج العلمى ؛ بما يتطلب من تقص للعوامل المختلفة التى رسمت لهذه الحياة طريقها ، ووضعت لها حدودها ، والأسباب التى وجهتها ، والملابسات التى لابستها ، قريبة وبعيدة ، حاضرة وغائبة ، دقيقة وجليلة ؛ ليس أمر يسيراً فليس بين أيدينا كبير شىء مما تقوم به هذه الدراسة .

لم يجر الرجل على السنة التى جرى عليها كثير من العلماء والأدباء ؛ إذ يسجلون حياتهم فى مذكرات يدونونها ؛ أو ترجمة ذاتية يكتبونها ؛ أو يعرضون

لكثير من صور هذه الحياة لبعض المناسبات التى تعرض خلال كتاباتهم فكنا نستطيع أن نجد فى ذلك مادة نستمدها فى رسم صورة دقيقة الملامح والقسمات من هذه الحياة ، كما يمكن أن نتعرف بها إلى كثير من أصولها وعللها . فقد كان الرجل — فيما يبدو — عزوفاً — عن أن يشغل الناس بشخصه ، منصرفاً إلى ما توفر عليه ورآه غايته الكبرى من الدعوة إلى الاصلاح الدينى ؛ وتحقيق مقومات الشخصية الإسلامية ؛ فى الصورة التى يراها ويؤمن بها[1].

كما لم يعن أصحابه وتلاميذه ومريدوه عناية كافية ، بالكتابة عنه؛ ورسم بعض صور حياته التى اتيحت لهم والحديث عن ملابسات نشاطه واتجاهاته، بما يعين على درسه ؛ وانما هى فصول قصيرة قليله فى جملتها يحسن أن نشير إلى ما وقفنا عليه منها :

فأول ذلك فصل كتبته « مجلة المجلات العربية » التى كان يصدرها فى القاهرة « محمود بك حسيب ، العضو بنادى المدارس العليا ، والعضو بالحزب الوطنى » . فى جزء ديسمبر سنة ١٩٠٧ وذلك بمناسبة صدور جريدة الدستور (فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٧) .

وقيمة هذا الفصل فيما أورده من بعض البيانات المقتضبة عن نشأة محمد فريد وجدى الاولى ، بما لم يقع لنا فى موضع آخر - وإن لاحظنا أنه لا يلتزم الدقـــة فى بعض التواريخ التى أوردها ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

ثم لا نكاد نظفر بعد ذلك بشىء ، فى حياة الرجل؛ إلا ما كانت توردە

---

(١) من المواضع القليلة التى استطرد فيها للحديث عن نفسه ، بعض مقالاته التى كتبها فى الدستور عن مصطفى كامل ، عقب موته ، فعرض فيها لتاريخ علاقته به ، ورسم فيها بعض صور هذه العلاقة .

أحيانا بعض المجلات الاسبوعية الخفيفة ، مما كانت تقصد به إطراف قرائها، إلى أن قضى نحبه فى السادس من شهر فبراير سنة ١٩٥٤ .

وقد مرت وفاته فى صمت مطلق ؛ وسكون مطبق : لم يكد يشعر أحد بموته . وإنما هو نعى صغير فى بضعة أسطر نشرته جريدة الأهرام فى صفحة الوفيات . « ينعاه — فيه — إلى المسلمين ابن عمته محمد بدر الدين وأصهاره أسرة الحلفاوى . . . » ويذكر موعد تشييع الجنازة :

«الثالثة والنصف من منزله رقم ٥ شارع إسماعيل باشا سرى بالمنيرة» .

ولا يبدو أن هذا النعى المتواضع قد أثار شيئاً فى جو الصمت المطلق حتى العاشر من شهر فبراير . إذ نشرت جريدة الاهرام فصلا قصيراً بإمضاء « محمد يوسف خليفة » وكان، فيما يبدو من سياق حديثه ، من أصحاب محمد فريد وجدى أو جلسائه ، وقد تضمن هذا الفصل بعض البيانات التى تحتاج إلى تحقيق .

كما نشر الأستاذ كامل الشناوى فى الأخبار كلمة عنه تساءل فيها: كيف يموت ولا يشعر به أحد ؟ هل لأننا لانقدر العلم والفلسفة والخلق أم ترانا لم نشعر بفقده لكثرة ما عندنا من علماء وفلاسفة وأصحاب أخلاق .

وفى الثالث عشر من هذا الشهر تنشر جريدة أخبار اليوم مقالا عنه للاستاذ عباس محمود العقاد، وكان لم يعلم بنبأ وفاته إلا من كلمة الأستاذ الشناوى . وقد تحدث عن « العالم الراحل » حديث الذكريات : ذكريات صلته به وعمله معه . وحديث الأسى والتقدير .

ثم تنشر الأهرام فى السابع عشر من فبراير مقالا للاستاذ محمد عبد الغنى حسن . يتحدث فيه عن مكانته فى العالم الإسلامى ، ويذكر آراء بعض العلماء المستشرقين فيه ، كما يسرد أسماء طائفة من كتبه .

وفى أول أبريل من هذا العام تنشر جريدة المصرى فصلا آخر بإمضاء : « عبد الحميد جلال — صحفى قديم » ضمنه طائفة من ذكرياته فى عهود مختلفة .

وبعد هذه المقالات الصحفية التى كتبت فى عجلة، وبعد هذه الهمسات والأصوات المتقطعة الخافتة التى يبدوا أنها ضاعت فى ضجيج الحياة ،عاد الصمت مرة أخرى؛ إلى أن أعادت دار الهلال طبع كتابه : « الإسلام دين عام خالد » — باسم : الإسلام دين الهداية والإصلاح — فى شهر نوفمبر سنة ١٩٦٢ ، وقدم له الأستاذ طاهر الطناحى بكلمة تضمنت بعض ما حدث به عن نفسه .

ثم نشرت مجلة « المجلة » فى شهر مارس سنة ١٩٦٣ — فى سلسلة من المقالات التى كان يكتبها الأستاذ عباس محمود العقاد عن بعض الشخصيات التى عرفها ، بعنوان : رجال عرفتهم — مقالا عن محمد فريد وجدى . (وقد نشرت هذه المقالات بعد ذلك مجتمعة فى سلسلة كتاب الهلال أكتوبر سنة ١٩٦٣) .

كما جعل الأستاذ العقاد يعرض للحديث عنه ، فى غير موضع ، فى سياق حديثه عن حياته ، فى كتابيه « أنا » و « حياة قلم »[1] .

فهذه جملة ما وقفنا عليه مما يتصل بالحديث عن محمد فريد وجدى.

وهو — على قلته واقتضابه واضطراب بعضه — مما لا يمكن إغفاله لأنه — على كل حال - يصف بعض الملامح ويضع بعض اللمسات . ولكنه بعيد عن الكفاية فيما يقصد إليه الباحث من كتابة سيرة علمية

---

(١) كتاب الهلال ، يوليه وديسمبر ، سنة ١٩٦٤ .

واضحة الملامح بينة القسمات تتغلغل وراء العلل والأسباب وتتقصى الظروف والملابسات . وخاصة لأن تاريخنا العقلى فى هذه الفترة لايزال الغموض يكتنفه والإبهام يسوده ، فهو لم يدرس بعد دراسة شاملة دقيقة توضح معالمه وتبين وجوهه ، وما تزال آثاره مشتتة فى مختلف المصادر ، وفى شتى الصحف والمجلات .

ومهما يكن من أمر فإننا نرجو أن يكون فى الصورة العقلية التى نود أن نستجليها بمراجعة آثار محمد فريد وجدى العلمية والأدبية ما قديكفينا الآن فيما نقصد اليه ، إلى جانب ما يتاح لنا من رسم الخطوط العامة لحياته ، والملامح الرئيسية لشخصيته ، وأكبر الظن أننا واجدون فى هذه الصورة العقلية ما يلقى شيئاً من الضوء على حياته الشخصية .

ولعلنا نستطيع — بعد أن ننتهى من كتابة سيرته أو نسق حياته — أن نتفرغ لدراسة جوانب شخصيته : مصلحاً دينياً واجتماعياً ، وعالماً موسوعياً ، وأديباً بارع العبارة واسع الافتنان فى الكتابة والشعر .

والله ولى العون والتوفيق والسداد

— ١ —

ولد محمد فريد وجدى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وإن اختلف بعد فى تعيين سنة مولده . فهناك من جعلها سنة ١٨٧٨ ، وهناك من تأخر بها عن هذا التاريخ ثلاث سنين ، فجعلها سنة ١٨٧٥ . ذكر التاريخ الأول محمد يوسف خليفة ، فى المقال الذى نشره عنه بعد وفاته فى جريدة الأهرام ، والذى أشرنا إليه فى المقدمة ، وبه أخذ الأستاذ الزركلى فيما ترجم به له فى كتاب الأعلام ، وذكرت التاريخ الثانى مجلة المجلات العربية فى ذلك الفصل الذى أشرنا إليه أيضاً ، وهو الذى أخذ به الأستاذ حسن عبد الوهاب .

وليس لنا بين هذين التاريخين إلا أن نحاول الموازنة بينهما ، ونلتمس الأسباب التى قد ترجح الواحد منها على الآخر .

وقد يكون مما يرجح التاريخ الثانى الذى ذكرته مجلة المجلات العربية — بادىء الرأى — أنها أقرب عهداً ، وأدنى بالمترجم له صلة .

ولكننا لاحظنا فى ذلك الفصل الذى كتبته هذه المجلة أنها لا تتحرى الدقة فى الأرقام خاصة . من ذلك ما ذكرته عن تاريخ كتابه : « الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان » — وهو أول كتاب ألفه — فقد ذكرت أنه ألفه سنة ١٣١٧ هجرية . وهو تاريخ يخالف التاريخ المقطوع به ، كما جاء فى خاتمة الطبع المدونة فى آخر ذلك الكتاب . وقد سجل فيها أن تاريخ الانتهاء من الطبع هو « أواسط شهر جمادى الثانية سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر من هجرة سيد الأنام » ، إلى غير ذلك من الخلط فى بعض التواريخ التى يذكرها فى نسق نشأته الأولى ، مما يدفع الثقة بها فى هذه

الناحية ، ويجعلنا لا نسلم بما تورده فيهـــا . وإن بدا أول الأمر أنه أولى بالتسليم .

فقد وجب إذن أن نلتمس مرجحاً آخر . وبالرغم مما نعرفه عن محمد فريد وجدى أنه قليل الحديث عن نفسه ، كما ذكرنا من قبل ، إلا أننا رجونا أن نجد فى كلامه ما يدل على ترجيح أحد التاريخين على الآخر .

وقد أتيح لنا من هذا القليل ما حكاه عن نفسه فى الفصل الذى كتبه عن « الرؤيا » فى « دائرة معارف القرن العشرين » . فقد ذكر أنه وهو فى العشرين من عمره ، رأى فيما يرى النائم كأنه عضو فى مؤتمر ، وكان على كل عضو من أعضائه أن يخطب فى أمر ، فلما انتهى إليه الدور ، ووجب أن يقوم خطيباً ، فكر فى موضوع خطابه ، وفى اللغة التى يخطب بها . أما اللغة فقد اختار العربية على التركية والفرنسية . وأما الموضوع فكان المدنية الإسلامية ، وكان التفكير فيها شغله الشاغل ، فما أن انتهى من خطبته حتى نظر إليه أحد المؤتمرين وكان ـ كما يقول ـ « لابساً طربوشاً علامة على أنه مسلم » ، وسأله بلحن المنكر : هل المدنية الإسلامية كما كما ذكرت ؟ فرد عليه بقوة : نعم ! فرد عليه قائلا : أنا لا أعتقد ذلك.

يقول محمد فريد وجدى بعد حكاية هذه الرؤيا : « ومضى على ذلك نحو من سنة ، واتفق أن المرحوم قاسم بك أمين نشر كتاباً تحت عنوان (تحرير المرأة) ، ذهب فيه إلى وجوب خلع المرأة المسلمة الحجاب ، فانبريت للرد عليه فى جريدة المؤيد ، ونال هذا الرد من جمهور القارئين إعجاباً عظيما . . . » إلى آخر ما ذكره فى هذا ، وليس يعنينا منه هنا إلا دلالته فيما نحن بصدده من تاريخ مولده .

فهو يذكر أنه كان فى العشرين من عمره حين رأى تلك الرؤيا ،

وأن ذلك كان قبل أن ينشر كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين بعام . فإذا علمنا أن هذا الكتاب نشر سنة ١٨٩٩ ، فقد كان فى سن العشرين سنة ١٨٩٨ . أى أن مولده ينبغى أن يكون سنة ١٨٧٨ . وبذلك يرجح القول الأول .

ويتفق هذا مع ما ذكره الأستاذ طاهر الطناحى ، فيما كتبه عنه فى التقدمة لكتابه الذى نشر باسم « الإسلام دين الهداية والإصلاح » ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ إذ يقول ، وهو يتحدث عن بعض وجوه صلته به . وعن تاريخ هذه الصلة :

« وقد كان غزير المادة نفيس الإنتاج ، فكنت أظنه ـ قبل معرفتى به سنة ١٩٣٠ ـ أنه شيخ جاوز الستين ، ولكنى دهشت حين علمت منه أنه لم يتجاوز الثانية والخمسين » .

فذلك هو تاريخ مولده . أما مكانه فكان مدينة الإسكندرية ، على ما تذكره مجلة المجلات العربية ، فى الفصل الذى أشرنا إليه .

وفى الإسكندرية كانت نشأته الأولى ، فى أسرته التى يؤسفنا أننا لا نكاد نعرف عنها كبير شىء ، وفى المدارس التى تلقى تعليمه فيها . وقد ذكر ذلك الفصل أسماء ثلاث مدارس التحق بها منذ طفولته : مدرسة إسماعيل أفندى حقى ، ومدرسة حمزة قبطان ، ومدرسة مسيو فالو . كما ذكر أنه أدخل المدرسة الأولى وهو فى الرابعة من عمره ، فأمضى بها أربعة أعوام ، ثم انتقل منها إلى المدرسة الثانية ، وبقى فيها حتى أتقن القراءة والكتابة ، ثم تحول بعد ذلك إلى المدرسة الثالثة ، وظل بها إلى أن نقل أبوه ، مصطفى بك وجدى ، إلى مدينة القاهرة ، وكان إذ ذاك فى السن

التى ترشحه لدخول المدرسة التحضيرية ، أو فى نحو الرابعة عشرة من عمره ، فيما نقدر[1] .

وكان علينا أن نتعرف إلى العوامل الأولى التى تعرض لتأثيرها فى هذه المرحلة من حياته ، فلا ريب عندنا فى أن الخيوط الأولى فى نسيج حياته أخذت تتكون فيها ، وأن الخطوط الكبرى فى ملامح شخصيته جعلت ترتسم فى خلالها . ولكنا لا نكاد نظفر بما هو بسبيل من ذلك ـ بالرغم من معاصرته ـ بشىء ذى بال .

إنما هى صورة الأحداث الكبرى التى تعرضت لها مدينة الإسكندرية منذ أخذت مداركه تتفتح ويبدأ حياته المدرسية . والتى نفترض — بالضرورة — أنه كان لها أثرها فى خياله ، أو فى رواسب حياته ، ونعنى بها أحداث الاحتلال الإنجليزى ، منذ قدوم الأسطول البريطانى الفرنسى وإرسائه بميناء الإسكندرية ، فى أواسط مايو سنة ١٨٨٢ ، ينشر الفزع ويثير مشاعر السخط والغضب ، ويبث الإشاعات من كل لون ، وفى كل جانب؛ إلى المذابح التى دبرها السير مالت ، المعتمد البريطانى ، والمستر كوكسن ، قنصل الإنجليز فى الإسكندرية ، والخديوى توفيق ، فى الحادى عشر من يونية؛ وما ترتب عليها من اشتداد التوتر بين المسلمين والأوربيين؛ إلى ضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول ، والحرائق التى نشبت عنه وصاحبته ، والفوضى الشديدة التى سادت المدينة ، وحركة الهجرة التى نستطيع أن نرى صورة واضحة منها فيما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ

---

(١) ذكرت هذه العجالة أنه ترك الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٨٢ ، ومعنى هذا ، مع ما ذكرت من أنه ولد سنة ١٨٧٥ ، أنه كان إذ ذاك فى سن السابعة ، وأنه ، وهو فى هذه السن ، كان قد مر بالمدارس الثلاث على الصورة التى ذكرتها . وتلك صورة من صور الخلط فى الأرقام والتواريخ ، كما أشرنا إلى ذلك قبل . والذى نفترضه أن ترك الإسكندرية إلى القاهرة كان سنة ١٨٩٢ .

محمد عبده عنها فى مذكراته، إلى غير ذلك من مشاهد الاحتلال ومنكراته والأصداء المختلفة التى كانت تتردد عنه ، وما كان يثيره ذلك كله فى نفوس الناس وأحاسيسهم وأحاديثهم .

ومثل ذلك لا يمكن إلا أن يكون له أثره فى خيال ذلك الطفل أو الصبى الناشىء . وإلا أن تتجاوب نفسه الغضة ببعض أصدائه التى كانت تتردد فى بيئته الصغيرة . وإن كنا لا نستطيع أن نعرف كيف كانت صور هذه الأصداء ، وعلى أى نحو كانت تتجاوب فى نفسه[1] .

لقد كانت هذه المرحلة الأولى من حياة محمد فريد وجدى تمثل فى الحياة المصرية الصراع بين الشخصية الإسلامية المصرية والاستعمار الإنجليزى . وكان هذا الصراع أقوى مايكون — أول أمره على الأقل — فى مدينة الإسكندرية ، فهى التى تلقت الصدمة الأولى ، وهى التى استهدفت لكثير من نتائجها ، وتعرضت لكثير من ردود فعلها ؛ وجدير بذلك أن يكون له أثره فى إرهاف مشاعره ، وتفتيح مداركه ، وتكوين شخصيته .

ذلك هو الجو العام الذى تعرض صبينا له فى أوائل حياته ،فى مدينة الإسكندرية ، ومهما يكن من أمر تأثره به ،فإنه — على كل حال — تأثر غير مباشر .

أما العوامل المباشرة التى تتمثل فى البيئات المختلفة التى عاش فيها ، فى البيت ، وفى المدرسة ، وفى الشارع ، فلا تكاد تعلم عنها إلا أنه نشأ فى

---

(١) ترى أكان لهذه الاتصالات بهذه الأحداث أثرها فى رأيه فى الثورة العرابية : أنها حركة طائشة ، دبرتها الدسائس الاجنبية ، للقضاء على الحركة الوطنية التى كانت ماتزال تشتد حتى وصلت لأرقى مظاهرها فى عهد الخديوى توفيق ، وأنها ليست من الحركة الوطنية فى شىء الا كما يكون الخيال من الحقيقه ، كما يقول ذلك فى مقالته التى افتتح بها جريدته الدستور؟ (١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٧) .

أسرة تركية الأصل، فيما يغلب على الظن، من أسر الطبقة الوسطى ، فهى أسرة محافظة ، وأن أباه كان من أوساط الموظفين ، ولكنه كان رجلا معنيا بالعلم ، حفيا بأهله ، وكانت له فى دارة مكتبة تضم الكثير من كتب الدين والأدب وفنون المعرفة المختلفة ، بالعربية والفرنسية والتركية، وأنه كان لايزال يزود هذه المكتبة بالجديد من الكتب والمجلات ، وخاصة بعد أن رأى مخايل النجابة والنضج المبكر والطموح العقلى فى ابنه الأكبر محمد فريد ، وأن مجلسه ، شأن مجالس أمثاله من الموظفين المستنيرين ، كان يختلف إليه بعض العلماء والمثقفين ، يسمرون فيه، ويتبادلون الحديث فى مسائل الدين والموضوعات الثقافية المختلفة . ولعله كان حريصاً على أن يشهد ابنه ، بصورة ما ، هذه المجالس ، حرصه على تكوينه تكوينا عقليا ، وإمداده بما يرضى طموحه ، ويتطلبه نبوغه ، فى حدود الروح المحافظة .

وأما المدارس التى تلقى بها تعليمه فى هذه المرحلة ، والتى أشرنا منذ قليل إليها ؛ فلا تكاد نعلم كبير شىء عن طبيعتها ومناهج التعليم فيها إلا أنها كانت مدارس خاصة كما يدل على ذلك تسميتها بأسماء أصحابها وأنها كانت تظفر بثقة الأسر الموسرة التى كانت تؤثرها فى تعليم أولادها على المدارس الحكومية التى كانت تأخذ تلاميذها بنظام شديد صارم ، شبه عسكرى ، وتفرض عليهم طعامها فى فترة الظهيرة ، فتحبسهم بها طول اليوم ، ولم يكن ذلك مما ترضاه هذه الأسر لأولادها . وأن مدرسة حمزة قبطان كانت من أشهر مدارس حى رأس التين ، وكانت تعنى بتعليم اللغة العربية إلى جانب عنايتها بتعليم اللغة الفرنسية . وفى هذه المدرسة أجاد محمد فريد وجدى القراءة والكتابة. ولأمر ما لم يشأ أبوه أن يلحقه بعد أن أتم تعليمه فيها بمدرسة رأس التين الثانوية ، وإنما ألحقه بمدرسة

المسيو فالون الفرنسية[1]. وفى هذه المدرسة أجاد اللغة الفرنسية . وكأنما ظاهر هذه المدرسة فى أجادته لها ما كان لهذه اللغة من مكانة ظاهرة فى مدينة الإسكندرية ، فى مجتمعها وفى الصحف والمجلات والكتب التى كانت تظهر بها فيها. وإن كنا لا نعلم المدة التى قضاها فى هذه المدرسة وتفصيلات مناهجها وما أتيح له فيها .

ذلك هو مبلغ ما نعلمه عن هذه المرحلة ، مرحله الإسكندرية ؛ من حياة محمد فريد وجدى . إنها - على كل حال - المرحلة التى تفتحت فيها مداركه، والتى استطاع أن يمتلك فيها الإداة اللغوية لإرضاء هذه المدارك وإشباع حاجاتها ، إذ يبدو أنه بلغ من اللغة العربية واللغة الفرنسية المبلغ الذى يمكنه من القراءة والفهم والتأمل والتعبير .

وكانت الإسكندرية فى هذه الفترة مركز نشاط أدبى خصب ، بما كان يصدر فيها ؛ وما كان يرد إليها ، من صحف ومجلات مختلفة ، عربية وفرنسية ؛ وأكبر الظن أن صبينا أقبل عليها ، قدر ما كانت تمكنه تلك الإداة اللغوية التى كانت ماتزال تطوع له كلما ازداد اقباله على القراءة ، كما كان إقباله هذا يزداد كلما ازدادت هذه الأداة طواعية واستجابة . ولو اتيح لنا أن نعرف شيئاً عن مطالعاته هذه المبكرة لكان ذلك كبير الجدوى فى معرفة الينابيع الأولى لاتجاهاته العلمية والادبية ، وتتبع أصول شخصيته العقلية .

ومن هذا القبيل مايخيل الينا أن من هذه المجلات التى كانت تعنى

---

(١) استمرت هذه المدرسة يديرها المسيو فالون Monsieur Valon ومعه ابنته إلى أواخر القرن التاسع عشر ثم نزل عنها لجمعية العروة الوثقى ،فى نحو سنة ١٨٩٧ ، كما أخبرنى بذلك الاستاذ يوسف فهمى الجزايرلى

بنشر فصول خيالية فى أسلوب المقامات، كمجلة الراوى التى كان يصدرها بالإسكندرية ، فيما بين سنتى ١٨٨٨ ، ١٨٩٠ خليل زينيه ، ما كان له أثره فى اتجاهه بعد إلى هذا الفن الذى سنعرض له عنده ، إن شاء الله .

ولم يكد محمد فريد وجدى يبلغ الرابعة عشرة أو نحوها ، وكان ذلك سنة ١٨٩٢ ، كما افترضنا من قبل ، حتى كان عليه أن يترك الاسكندرية مع أسرته إلى القاهرة فقد نقل أبوه، مصطفى وجدى بن على رشاد، إليها .

وكان طبيعيا أن يفكر مصطفى وجدى فى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ابنه فى تعليمه ، فى القاهرة . ولعلها واجهته باعتبارات جديدة لم يشأ معها أن يستمر فى ذلك النوع من التعليم الذى بدأه فى الإسكندرية وقطع منه مرحلة لا بأس بها ، وربما كان إيثاره أو اللجوء إليه إذ ذاك لاعتبارات خاصة لديه،أو لظروف خاصة بتلك المدينة ؛وها هو ذا اليوم بالقاهرة بإزاء ظروف جديدة واعتبارات مختلفة . وأيا كانت هذه الاعتبارات فقد رأى أن يسلك فى تعليم ابنه فى القاهرة الطريق النظامى الذى سنته الدولة ، والذى يسلكه نظراؤه وأهل طبقته.

وكانت سن الرابعة عشرة التى بلغها ابنه هى السن المعتادة للالتحاق بالمدارس الثانوية (أو التحضيرية ، كما كانت تسمى إذ ذاك) ، كما يمكن أن نرى ذلك فى مثل أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومصطفى كامل ، ممن تعرف تواريخهم ومراحل حياتهم، ممن تعلموا فى مدارس الدولة .

وهكذا ألحقه أبوه بالمدرسة التوفيقية ، إحدى المدارس التحضيرية الثلاث بالقاهرة .

ترى ماذا كان أثر هذا التحول ، من ذلك الأسلوب التعليمى الذى

بدأ به فى الإسكندرية ، وأمضى عليه عشر سنوات ، إلى هذا الأسلوب الجديد والمنهج المختلف الذى صار إليه فى المدرسة التوفيقية بالقاهرة ؟

إذا كانت بيئة القاهره شيئاً جديداً بالقياس إلى ذلك الفتى القادم من الإسكندرية ، وكانت مشاهد الحياة فيها مغايرة إلى حد بعيد لما ألفه فى مدينته الأولى، وكان لذلك — ولا ريب — أثره فى إثاره مشاعره، وحفز تطلعه ، فلا ريب أن أسلوب التعليم فى المدرسة التوفيقية كان أشد مغايرة بالقياس إلى ما ألفه في مدارسه تلك بالإسكندرية . قد يكون فوق مستواه أو دونه ، ولكنه كان ـ على أى حال ـ مختلفاً اختلافاً غير قليل يدعو إلى الحيرة ، ويبعث الاضطراب بين مانشأ عليه وما عليه أن يواجهه منه ، وماذا ينبغى أن يحاوله ليوائم بينه وبينه . وكان ذلك مما دعا أباه ـ كما يذكر ذلك الفصل الذى نشرته بينه مجلة المجلات العربية ـ إلى التماس مدرسين خصوصيين يدرسون له في البيت . وإن كان يعزو ذلك إلى الرغبة فى اختصار مدة الدراسة .

لقد كان لهذه النقله أثر كبير فى حياه الفتى محمد فريد ، لا من الناحية التى ذكرناها ، وهى الاضطراب بين نظامين ، والحيرة بين أسلوبين ، فحسب ، بل فوق ذلك من ناحية أنها حدثت فى سن التفتح العقلى والتوثب الوجدانى ، فكان لها اثرها فى إثارة مواهبه وحفز ملكاته فلم يعد الامر أمر محاولة الملاءمة والتوفيق بين مانشأ عليه من نظام تعليمى وما عليه أن يواجهه من نظام آخر يريد أن يعقد صلته به ، وانما انضاف إلى هذا الملاءمة بين مايدفعه إليه طموحه العقلى وتوثبه الذهنى ، وبين هذه البرامج التعليمية المحدودة الجافة فى المدرسة التوفيقية .

وإذن فقد أصبح هناك أمران لا أمر واحد يعترضان سبيله إلى تلك البرامج ، ويصدانه عن متابعتها . وكانت موضوعات القراءة الحرة

الطليقة التى يتطلبها توثبه العقلى ، والتى يتطلع إليها فى شغف ، والتى كانت معرضة له مبذولة أمامه ، وكانت أداته اللغوية تقربها إليه ، وتيسرها له ، شديدة الإغراء قوية الاستهواء ، فإذا هو مقبل عليها ، مستغرق فيها ، وهو يحاول فى الوقت نفسه ان يرضى أباه بمتابعة برامج الدراسة المدرسية ، وان ضؤلت فى عينه وصارت شيئاً تافهاً لا قدر له بالقياس إلى ما أتيح له من تلك القراءات .

ولكنه لا يكاد يأخذ نفسه بذلك ، كما اخذ يألف القاهرة ويقبل على ما فيها من متع عقلية ، حتى كان عليه ان يتركها مع اسرته التى اخذت تستعد للانتقال إلى دمياط ، وقد عين ابوه بها وكيلا لمحافظتها . وكان ذلك — فيما نقدر — بعد نحو عامين من الإقامة بالقاهرة . أى فى نحو سنة ١٨٩٤ . وبذلك انقطعت دراسته فى المدرسة التوفيقية .

وبذلك تنتهى هذه المرحلة من حياة محمد فريد وجدى ، ليبدأ من بعد مرحلة جديدة ؛ نرى فيها ذلك الفتى الموزع بين واجباته المدرسية ونوازع طموحه العقلى ، تنزع به نحو الكتب والمجلات المختلفة . وكأنما قد خلص من هذا التمزق ، وتحرر من تلك القيود التى كانت تثقله ، وفرغ للقراءة الحرة والدراسة الطليقة ، فإذا هو كاتب مؤلف لا يفرغ من كتاب حتى يأخذ فى آخر ، ولا ينتهى من فصل حتى يبدأ فصلا غيره ؛ ولا تكاد تنفعل نفسه بشىء فى حياتنا الدينية والعقلية حتى يبادر بكتابة مقال عنه يبعث به إلى هذه الصحيفة أو تلك من صحف القاهرة.

- ٢ -

وتقع هذه المرحلة فى فترتين : الأولى فى دمياط ، والأخرى فى السويس .

ولعلنا واجدون فى الحديث الذى حكاه الأستاذ طاهر الطناحى عن الأستاذ محمد فريد وجدى ، والذى يتحدث فيه عن بدء اتجاهه إلى الدراسات الدينية ما يصور لنا أيضاً بدء حياته العقلية فى دمياط ، ويبين لنا شيئاً من العوامل التى تعرض لها منذ إقامته فيها ، وكان لها — ولا ريب — أثرها فى توجيه حياته ، وتكوين شخصيته . قال :

« كان أهم ما وجهنى إلى البحث فى العلوم الدينية حادث الشك فى العقيدة ، الذى أدى بى إلى الشك فى كل شىء . حتى فى الدين وعلومه . فقد كنت فى سن السادسة عشرة طالباً فى المدرسة التحضيرية ، وكان أبى مصطفى وجدى موظفاً فى الحكومة المصرية ، وحدث وقتئذ أن اختير وكيلا لمحافظة دمياط ، فكان لا بد من انتقالى مع عائلتى إلى هذه المدينة التى اشتهر أهلها بدماثة الأخلاق ، والتفقه فى الدين ، وميلهم إلى الآداب .

ولما نزلنا هذه البلدة مع أبى أقبل علماؤها وكبار أهلها يرحبون به ؛ فكان يجتمع فى دارنا عدد كبير منهم ، وكانت تدور أثناء المجلس عدة مناقشات دينية ، وجدت فيها مجالا للبحث والتفكير . غير أننى كنت إذا ناقشت أحد العلماء فى مسألة تتعلق بالكون والخلق ، أسرع أبى لقفل باب المناقشة ، وأمرنى بألا أخوض فى المسائل الدينية ، أو أبدى فيها رأياً ، فكنت أمتعض لذلك ، وأرى أن فيه حجراً على العقل بلا مسوغ . وأخذت أبحث عن السبب الذى أدى بهم الى هذا الجمود ، وقلت فى

نفسي : لا بد أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيماً .. ومن هنا تزلزلت عقيدتي ، وشرع الشك يتسرب إلى نفسي ، حتى صرت لا أرتاح إلى رأى واحد يتضمنه كتاب ، ولا أقتصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء فى إثباتها ، بما أوتى من قوة الحجة وساطع البرهان .

وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية ، وسائر ما يتعلق فيها بعلم النفس . وأكببت على ذلك عدة سنين ، فاكتسبت علماً غزيراً ، واتسع أمامى نطاق الحياة ، وجال نظرى فى الكائنات جولات أفادتنى فيما أتناوله بالبحث والدرس حتى صرت لا أقنع بفكرة دون أن أعنى بدرسها وتمحيصها ، معتمداً فى ذلك على تجاربى الذهنية التى مرت بى .

وقد أفادنى هذا الشك استقلالا فى الفكر ، واعتماداً على النفس ورغبة فى استيعاب ما يقع بيدى من الكتب ، على اختلاف انواعها بصبر وجلد ، كما افادنى فى البحث ، حتى ازال الشك عنى ، وارتاحت نفسى إلى عقيدة ثابتة» [1] .

فهذه صورة من حياة محمد فريد وجدى فى هذه المرحلة من حياته فى دمياط .

صورة شاب فى مقتبل شبابه ، اقبل على هذه المدينة ، وهو فى سن التفتح العقلى والتوثب الذهنى ، وكان ما اتيح له فى القاهرة من قراءات حرة وتأملات طليقة قد رشحه لنوع من الاستقلال الفكرى ، ربما

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح، ص ٩ — ١٠ (سلسلة كتاب الهلال ، نوفمبر سنة ١٩٦٢) .

كان يشوبه شيء من الغرور ، وإذا هو في مجلس حافل بالشيوخ من علماء هذه المدينة يتحدثون . وتعرض بعض مسائل الدين فيتناقشون فيها ويتناظرون ، وإذا هو يسمع اشياء لا يسيغها ، وإذا بأسلوب في التفكير والتقرير ينكره عقله . ويأباه العلم الذى تمثل له فيما قرأ من دراسات فى «الكون والخلق» انطبع بها تفكيره ، وإذا هو يرى نفسه مدفوعاً إلى مناقشتهم والإدلاء برأيه فى هذه المسائل التى تتعلق بالكون والخلق ، ولكنه لا يكاد يهم بالمناقشة حتى يحس ابوه بالحرج فيصرفه عنها . ويأمره ألا يخوض فى المسائل الدينية التى لا شأن له بها ، ولا قدرة له عليها .

ويكبر هذا الموقف من الأب فى نفس الفتى المعتز برأيه وتفكيره ويرى فيه «حجراً على العقل بلا مسوغ» . وتمثل أمامه اقوال هؤلاء الشيوخ وآراؤهم فى الدين فإذا هو يردد بينه وبين نفسه : إذا كان الدين هو ما تعرضه اقوالهم فهو باطل . وإذا لم يكن ذلك هو الدين ، فما هو إذن ؟ . وبذلك يرى الشاب نفسه مدفوعاً إلى التماس الدين فى كتبه ومصادره ، وقد تبين له عقم الكتب التى صدر عنها هؤلاء الشيوخ فى تمثيلهم للدين ، وفى تفكيرهم الدينى . ويدفعه ذلك إلى عدم الوقوف عندها والاكتفاء بها ، وإنما يتجاوزها إلى غيرها . فيمضى بقراءاته الدينية فى كل مجال ، ويلتمس الحقيقة الدينية فى كل سبيل ، مستطرداً إلى قراءة كل ما هو بسبيل من الدرس الدينى ، من « الكتب الكونية والاجتماعية وسائر ما يتعلق بعلم النفس» .

ذلك هو فتانا اول مقدمه دمياط ، وتلك هى بداية السبيل التى سلكها ، والأصل فى الوجهة التى اتجه فى حياته إليها ، وهى الوجهة التى لم تكد تتضح له حتى رآها غايته الأولى . واعتبرها نصيبه المفروض من « خدمة الوطن » .

وقد كانت حساسية الشباب نحو العمل للوطن، فى هذه الفترة من الحياة المصرية ، حساسية شديدة مبكرة ، لا يكاد الشاب يحس برجولته حتى تتجه مشاعره نحو وطنه وواجبه إزاءه ، وكذلك لم يكد محمد فريد وجدى يبلغ السادسة عشرة حتى اعتبر أن هذه السن هى « سن البدء فى العمل للوطن » ، كما هو نص عبارته . أليست هى السن التى بدأ فيها مصطفى كامل الشعور بواجبه نحو وطنه والعمل له . فكان من ذلك اتجاهه إلى تأليف جمعية أدبية ، وهو ما زال تلميذاً فى المدرسة الخديوية؟[1] .

أما كيف كان تفكيره فى هذه المسألة ، وكيف كان يتمثلها ، وكيف كانت خطته التى ارتسمها لها ، فلعلنا نستطيع أن نرى صورة من ذلك فى المقدمة التى كتبها لكتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » .

لقد كان أول ماصدمه فى ذلك المجلس الذى كان ينعقد فى دار أبيه فى دمياط هو ذلك التعارض بين الإسلام ، كما يتمثله أولئك الشيوخ ، وبين المنهج العلمى كما يراه ، فلما جعل يلتمس حقيقة الإسلام لم يكن التعارض إلا بين الإسلام ، كما هو فى حقيقته الصافية ، والإسلام فى تلك الصورة التى غلبت عليها البدع المنكرة ، ونكرتها الخرافات المستهجنة ، والتى عرضته لقالات السوء من الأوربيين الذين لا يرونه إلا بمجموعة من « البدع التى اخترعها صغار العقول ، وقبلها منهم العامة ، وزادوا عليها أشكالا من الأوهام والأضاليل ، تنفر منها الطباع البشرية ، وتنافى أصول المدنية » .

---

(١) يقول عبدالرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل : بدأ يشعر وهو فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبا نحو وطنه يجب أن يؤديه . ظهر هذا الشعور — أول مابدا — وهو فى الخديوية ، إذ أسس جمعية وطنية أسماها : جمعية الصابية الأدبية ، واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى التلمذة ، ممن توسم فيهم العقل والذكاء والكفاية .

وإذن فإن أول واجب عليه إزاء ذلك — كما يجب على كل شرقى متنور — هو أن يصحح هذه الصورة ، ويجلوها مبرأة مما لحق بها ؛ فيبين الإسلام على حقيقته أمام الأوربيين ، إلى جانب السعى فى محو البدع التى غص بها العالم الإسلامى .

ثم يقول فى هذه المقدمة : « هذه الأفكار كانت تجيش فى صدرى من منذ أربع سنوات ؛ وأنا إذ ذاك فى سن البدء فى العمل للوطن ؛ فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة ؛ فثابرت من حينها ، بهمة لا تعرف الملل ، على درس ما يؤهلنى إلى فهم حقيقة الإسلام ، حتى آنست من نفس القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس ، فابتدأت أعمالى بتأليف كتاب باللغة الفرنساوية ، نفيت فيه عن الإسلام كل تهمة ألحقها به المفترون ؛ وأثبت بالأدلة الحسية ، وبالاستناد على البداهة العلمية ، أنه روح المدنية الحقيقية ، وعين أمنية النفس البشرية ، ونهاية ماترمى إليه القوة العقلية » .

وهذا الكتاب الذى ذكر أنه ألفه بالفرنسية ، تحقيقا للغرض الذى كان ما يزال ماثلا أمامه ، وهو تعريف الغربيين بالدين الإسلامى على حقيقته ، هو الكتاب الذى أشار إليه السيد محمد رشيد رضا فى أولى رسائله التى كان يبعث بها إلى صديقه فى الشام ، الشيخ عبد القادر المغربى منذ وصوله إلى مصر (فى الثالث من شهر يناير سنة ١٨٩٨) . وفى هذه الرسالة يتحدث عن بعض جولاته السريعة التى كان يلم فيها ببعض مدن الوجه البحرى ، عقب وصوله ، وهو فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة واللقاءات التى أتيحت له فيها ؛ والصلات التى أخذ يعقدها . وكان من ذلك أن عرج على مدينة دمياط واجتمع بعلمائها . وكان ممن لقيهم فيها محمد فريد وجدى ؛ وقد تحدث عنه فى هذه الرسالة قائلا :

« فريد بك ؛ ابن وكيل محافظة دمياط . شاب ذكى نبيه ؛ أبصر أهل

دمياط بحالة الإسلام والوقت . وجهته مثلنا دينية . يطالع الإحياء ؛ وله اعتناء بالفلسفة . ألف كتابا صغيراً سماه « الفلسفة الحقة » اهدانى نسخة منه ؛ وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسية فى الديانة الإسلامية ويعرضه فى معرض باريز الآتى . وهو منفرد بهذه الأفكار فى دمياط لأن دمياط بلدة إسلامية لا مداخلة للنصارى والإفرنج فيها ، ومن ثم هى ضعيفة فى العمران ، قوية فى التمسك بالدين ، لا نظير لها فى مدن مصر . زرت فريد بك وزارنى ، وقد أعجب بى كل الإعجاب ، وتمنى أن أكون معه دائماً ، ونشط همتى على إنشاء الجريدة ، وسيكتب فيها »[1] .

فقد كان فريد وجدى يتهيأ ، إذن ، فى الأيام الأولى من سنة ١٨٩٨ لتأليف ذلك الكتاب الذى يذكره فى مقدمة كتاب « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » على أنه أصله ومبدؤه كما يذكره مرة أخرى فى رسالة إلى السيد محمد رشيد رضا ، عند شروعه فى طبع هذا الكتاب يقول فيها : « وبعد ، فإنى أرى من الواجب على إحاطتكم علماً بما عزمت عليه مما يعضد مشروعكم ويقوى صوتكم . وهو أنى ألفت قبل بضعة أشهر كتاباً باللغة الفرنساوية ، أثبت فيه بالبراهين العصرية ، وبالاستناد إلى أقاويل أساطين فلسفة زماننا الحاضر أن المدنية الحقة والإسلام هما أخوان توأمان لا يفترقان ، وبعثت بالكتاب ليطبع فى باريس »[2] .

لقد كانت فكرة الاتجاه إلى الأوربيين بالكتابة عن الإسلام لا تزال مسيطرة عليه ، وذلك لتصحيح صورته فى أعينهم ، إذ كان يأنف — فيما يبدو — من أن يكونوا لا يعرفون عن دين الإسلام إلا ما يرونه أمام

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٤ (٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥)
(٢) المنار ، السنة الأولى ، ص ٢٦٢ (٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨)

أعينهم كل يوم ، مثل الصياح فى الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للادب والعقل ، فى الموالد التى تقام فى كثير من نقط القطر المصرى ، ومثل الاجتماع فى حلقات كبيرة ، على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين ، والصياح الشديد بالذكر ، مع التمايل يميناً ويساراً ، إلى غير ذلك . . . » . كما هو نص عبارته .

وفكرة الاتجاه إلى الأوربيين بالكتابة لتبصيرهم بحقائقنا ، واستخدام لغتهم فى ذلك ، ينبغى أن نفهمها فى ضوء الروح السائدة فى ذلك الوقت، والتى كان من مظاهرها — مثلا — اتجاه مصطفى كامل إليهم بزياراته واتصالاته وخطبه ورسائله ، ثم بإصداره جريدة اللواء بالفرنسية والإنجليزية . صحيح أن ذلك كان نوعاً من الدعاية السياسية ، أو مايسمى بالإعلام فى هذه الأيام . ولكنى أحسب أن محمد فريد وجدى كان يرى أن جهاده فى سبيل الدين هو فى حقيقته وجه من وجوه الجهاد فى سبيل الوطن، وأن عمله فى هذا الميدان لا يقل خطراً ولا يختلف كثيراً عن عمل رجل مثل مصطفى كامل فى ميدان السياسة .

وإذا كان هذا الميدان يقتضى أصحابه الاتجاه إلى الأوربيين لتصحيح وضع مصر السياسى عندهم ، فالأمر كذلك بالقياس إلى أصحاب الميدان الدينى . فلابد من الاتجاه إلى الأوربيين الذين يسيئون فهم الصورة الدينية فى مصر والعالم الإسلامى ، لتصحيحها ، حتى يمكن « أن يتعارف الفريقان تعارفاً يمحو ما سبق من التناكر الذى كانت نتائجه دائماً اضطرام نيران الشقاق بينهما »، كما يقول فى مقدمة كتابه ذلك « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » .

فأكبر الظن أن محمد فريد وجدى كان متأثراً بهذه الروح، ومن ذلك

كان تفكيره فى أن يكتب عن الإسلام بالفرنسية[١] . وإذ كان يقدر مبلغ العقبات التى تعترض نشر كتابه ذلك بهذه اللغة ، فقد خطر له ذلك الخاطر الذى يمكن أن يوصف بأنه ساذج، وهو أن يعرضه فى معرض باريز، إن صح ما يحكيه السيد محمد رشيد رضا فى رسالته . ثم تبينت له بعد ذلك سذاجته فحاول أن يطبعه فى باريس، وإن لم تتم هذه المحاولة .

وهذا جملة ما نعرفه عن هذا الكتاب[٢] .

---

(١) ولقد ظلت هذه الفكرة تراوده بعد إصداره مجلة الحياة ، فقال فى العدد الثانى الصادر فى ٩ يولية سنة ١٨٩٩ : « وفى عزمنا، بعد أن تتوطد دعائم هذه الجريدة ، أن نصدر جريدتين أخريين : إحداهما فرنساوية العبارة ، نحررها بقلمنا ، والأخرى انجليزية ، ننتقى لها من أبناء البلاد مترجما . وستبعث كلتا هاتين الجريدتين فى الإسلام لتؤدى لشق عظيم من النوع الإنسانى خدمة كبرى ، ولتدحض ترهات المدّاعين من هذا الدين القويم . والله المعين » .

(٢) يقول محمد يوسف خليفة فى مقاله الذى أشرنا إليه : « وفى عام ١٨٩٨ وضع بالفرنسية كتابا عن الإسلام والمدنية . وقد كان ـ ومازال ـ ذلك الكتاب فريدا فى نوعه ، فى تقديم روح الإسلام وفلسفته بطريقة عصرية ، مما حمل الهيئات الإسلامية وانتخبته لرفعه لمؤتمر الأديان المنعقد باليابان » . وفى هذا الكلام خلط بين كتابه هذا الذى وضعه بالفرنسية، والكتاب الذى ظهر بالعربية يحمل فيما بعد هذا الاسم ، والذى سنتحدث عنه بعد، وبينه وبين الرسالة التى وضعها بالفرنسية بعد هذا بنحو سبع سنين ، باقتراح الزعيم مصطفى كامل ، لتقدم إلى مؤتمر أشاعت الصحف أنه سيعقد باليابان ، للبحث فى الأديان ، كما سنعرض لذلك فى موضعه ، إن شاء الله.

- ٣ -

أما الكتاب الآخر الذى أشار إليه السيد محمد رشيد رضا ، فى تلك الفقرة التى أوردناها من رسالته إلى الشيخ عبد القادر المغربى ، وقال أن « فريد بك » أهداه نسخة منه . فتمام اسمه « الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان » . وهو كتاب صغير يقع فى أربع وثمانين صفحة ، ظهر قبل أن يلتقى الرجلان فى دمياط بأكثر من عامين ، وكان محمد فريد وجدى إذ ذاك فى السابعة عشرة من عمره .

وموضوعه بيان أسرار الوجود ، والحكمة الكامنة فى كل وجه من وجوهه ، وفى كل صورة من صوره . وقد صنفه على عوالم الكون الأربعة : الإنسان والحيوان والنبات والجماد . أو هذا مارسمه أولا ، ثم استغنى عن أن يعقد لعالم الجماد فصلا ، وقال فى تبرير ذلك فى آخر فصل النباتات: « وحيث إننا أتممنا الكلام عن النباتات كان من الواجب علينا أن نتكلم عن الجمادات ، جرياً على السمت الذى رسمناه لأنفسنا ، فى مقدمتنا . ولكننا رأينا أن أكثر أجزاء هذه المملكة جاء منبثاً فى أثناء الكلام على غيرها. فوجب علينا حرصاً على قاعدة عدم العود إلى موضوع سبق القول فيه ، أن نلوى عنه كشحاً . ونضرب عنه صفحاً . وخير كاتب من لم يستطرد قلمه إلى التطويل الممل ، ولم يستنزله إلى مهواة الإيجاز المخل ، بل من يتخذ بين ذلك سبيلا »[1].

فهذه فصول ثلاثة هى : الفصل الثانى والثالث والرابع ، لكل مملكة

---

(١) الفلسفة الحقة ، ص ٧٥ .

فصل: الإنسان والحيوان والنبات . أما الفصل الأول فجمله عن الكون الذى تقوم به هذه الممالك ، ويعنى به الكرة الأرضية التى تقوم عليها هذه العوالم والكواكب السماوية الأخرى التى « لو قسنا حجم أرضنا نجده لا يذكر بجانب أحجامها » كما يقول . وخص كوكب المريخ « وهو — كما يقول — الكوكب الذى كثر الكلام عليه فى هذه الأيام » بفصل عناية . وقدم لهذه الفصول الأربعة بمقدمة جعلها كلاماً عن الإنسان وأحواله ، وختمها بخاتمة جعلها كذلك كلاما عاما عما عرض له فى الفصول السابقة من الكلام عن « الأكوان والإنسان والحيوان والنبات »

هذه هى الرسالة التى تمثل الإنتاج الفكرى الأول لمحمد فريد وجدى كما نستطيع أن نتمثل فيها اتجاهه الأول إلى درس الكون والنظر فى الكائنات ، وهو الأمر الذى كان مثار الخلاف بينه وبين شيوخ دمياط ، كما رأينا فيما أوردنا من حديثه مع طاهر الطناحى .

وإذا كانت هذه الرسالة تؤدى إلينا صورة من القراءات التى كانت تستهويه وتستبد به فى مقتبل شبابه وأواخر صباه ، والتى كان يلتمسها فى الكتب والصحف والمجلات ، ويتابعها فى كل ما يرد إلى مصر من ذلك مما يقع فى يده . ويدخل فى قدرة عقله ، كما تبين لنا نوع التأملات التى كانت تستغرقه وتسيطر عليه وتكاد تصرفه عن كل شىء عداها ، فإننا نستطيع أن نتعرف فيها — فى الوقت نفسه — إلى غير قليل من أصول المبادئ التى غلبت عليه فى حياته العلمية .

فنرى فيها مثلا صورة المثل الأعلى التى جعلت تستهويه ، وما زالت تتخايل له حتى صرفته إليها ، وزهدته فى كل ما عداها مما يستهوى الشباب ، حتى واجباته المدرسيه التى كان عليه أن يخصها بقدر غير

قليل من عنايته أخذت تتضاءل فى عينه ، وتتضاءل معها كل النتائج التى قد يظفر بها من أدائه لها ونجاحه فيها . إن الصورة التى برزت له من خلال قراءاته وتأملاته ، وهى صورة الرجل العالم الباحث عن الحقيقة، لا يفتأ ينقب عنها ويجرى وراءها ،فإذا هى كل همه، تجمعت فى بحثه عنها كل لذائذ حياته ومتع وجدانه ، هذه الصورة قد أصبحت نصب عينه وملء خواطره . وقد بالغت فى تزيينها وتلوينها وتوشيتها سنة الغضة وشبابه المتوقد . فهو لا يفتأ يحاول أن يصوغ نفسه على غرارها ، ويدفع نفسه فى تيارها . يحفزه طموح قوى وخيال متوثب .

وقد عرض لهذه الصورة ورسم بعض خطوطها فى غير موضع من كتيبه هذا . من ذلك قوله فى مقدمته ، بعـــد أن تحدث عن الإبداع الكونى ، وعجز العلماء عن وصفه ، وقصورهم عن إدراك كنهه ، كما يشهدون بذلك على أنفسهم فى كتبهم ورسائلهم :

« . . . فهؤلاء العلماء هم أكثر الناس لذة ، وأوفرهم حظاً ، وأغزرهم عقلا ، وأفضلهم نبلا . يرى الواحد منهم النملة سائرة على أديم الأرض ، فيكون نظره إليها ، وهى دائبة لتصل إلى وكرها ، حاملة لغنيمتها ، ألذ له من اجتلاء خطرات الغادات فى الخمائل النضرات، وإن سمع زمجرة الرعد وقواصف الرياح يهتز لحكمتها طرباً ، ولا طربه من سماع رنات العيدان ، بين الكاسات والندمان . فإن خيرت أحدهم بين نواله ملء الأرض ذهباً مع صيرورته من ذوى العقول الساذجة ، وبين بقائه على حالته مع الفقر المدقع ، لرضى بالثانى رضى لا يشوبه ندم ولا يصحبه سدم مع هربه من الأول ولا هربه من المصاب بالتيفوس . فهو فى حالة لا يعلم قدرها إلا هو ومن على شكله وشاكلته « يؤتى الحكمة من يشاء ،

ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

وأما من قضى عليهم بأن يعيشوا منصرفين عن التدبر فى عجائب كونهم : مقتنعين برغيف وجرعة ماء وكسوة تقيهم الحر والقر ، فهم لعمرك يرثى لهم ويبكى عليهم ويندب حظهم ، لاسرور عندهم ، ولا بشر يختلج فى أفئدتهم ، فما لهم حظ فى هذه الحياة الدنيا إلا المأكل والمشرب وحسو الكاس ، ومعاناة الشهوات ، ومناغاة الموبقات » .

ومهما يكن فى هذه العبارات من فجاجة وقصور ، ومن تكلف فى التعبير ، أو ما إلى ذلك مما هو أمر طبيعى بالقياس إلى شاب ناشىء فى السابعة عشرة ، لم يتمرس بالكتابة ، وقد أخذ نفسه بمعاناة التأليف لأول مرة ، دون أن يستكمل أداته — وقد يكون إيرادنا لهذه الفقرة من كلامه لتكون إلى جانب ما أردنا الاستشهاد له ، نموذجاً من كتابته وهو يخطو فيها خطاه الأولى — مهما يكن من ذلك فإننا نستشف وراء هذه العبارات صورة المثل الأعلى للعالم الذى أصبح العلم عنده نوعاً من التصوف ، والذى فتنته الطبيعة ، موضوع درسه ، فصرفته إليها عن كل متاع مادى ، فهو يؤثر اللذة العقلية والمتعة الروحية على كل شىء ، وهو المثل الذى استطاع أن يستهويه وهو فى هذه السن . وقد ظل ماثلا أمامه ، غالباً عليه طيلة حياته .

وفى هذا الكتيب نرى الصورة الأولى للروح العلمية التى ظلت مسيطرة عليه فى جميع الميادين التى كان يخوضها ، والقضايا التى كان يعالجها .

ونستطيع أن نرجع بهذه الروح العلمية إلى « حادث الشك فى العقيدة »

الذى حدث به عن نفسه، وحكاه عنه الأستاذ طاهر الطناحى فيما أوردناه آنفاً، وهو الشك الذى دفعه إلى قراءة كتب الدين فى جميع اتجاهاتها، وقراءة كل ما يتصل بها، وبحث المسائل الدينية من جميع جوانبها، لا يقنع برأى ولا يقتصر على قول ولا يكتفى بما يعرض له. وفى هذا الكتيب جعلت هذه الروح العلمية تعلن عن نفسها بالدعوة إلى التوقف والحذر، وترك البت والجزم فى مسائل العلم، أو الوقوف عند المقررات، كأن العلم قد قال كلمته الأخيرة فيها، وليس له أن يفعل، والتنديد بالذين يقفون عند الظواهر ويقنعون بالقشور، فيصدرون أحكامهم العلمية فى صورة قاطعة جازمة، وذلك إذ يقول:

«وقد جرى كل علماء الدنيا على عدم الاغترار بالقشر عن اللباب، وصاروا ينظرون للشىء مريدين معرفة كنهه لا حقيقته فقط. أما الذين قرأوا كتاباً أو كتابين، وتعلموا بعض الاصطلاحات الفنية، وطمس على بصيرتهم، فإنهم ينظرون للطبيعة نظر العميان. فلا يرون فيها شيئاً من الأشياء إلا وجدوا له فى مخيلتهم كلاماً محفوظاً قرأوه فى كتبهم. فلما تحصل لهم ذلك إذا هم يغترون بأنفسهم، ويزعمون أنهم أساطين الطبيعة وعمادها، فتريهم فكرتهم الجامدة أن الطبيعة ليست بغريبة التركيب، (لا لأنهم عرفوا كل شىء فيها). فمثل هؤلاء كمثل المغترين بالسراب الكاذب الذى لا يغنى عن الماء فتيلا. لو سألت أحدهم ما الماء؟ لقال بملء فيه: أوكسجين وأيدروجين فقط، كأنه ينص على أن هذين الجسمين فقط هما عنصرا الماء، ومع أن حضرته لا يدرى أنه ربما وقع فيما كان واقعاً فيه أسلافنا من اعتبارهم الماء عنصراً واحداً. هل قام لديه دليل على أن الأوكسيجين جسم بسيط؟ وما المانع من أن

يكون مركباً من جملة عناصر أخرى ، تظهرها الآلات المستقبلة فى الأيام المقبلة[1] ،

إلى غير ذلك مما نجده فى غير موضع من هذا الكتاب .

وبعد ، فإن هذا الكتاب — بالرغم من كل مافيه من مظاهر القصور والفجاجة أحيانا — يمثل كثيراً من العناصر الأولى لشخصية محمد فريد وجدى فى أوليتها. ولا ريب عندنا فى أن الإمعان فى درسه وتحليله جدير أن يؤدى إلينا صورة من هذه الشخصية فى هذه المرحلة الأولى من مراحلها ، كما يبرز لنا كثيراً من عوامل نشوئها ، ويعين لنا المصادر الأولى التى كانت تصدر عنها ، وتكونت — أول ماتكونت ـ بها ، مما نرجو أن نعرض له حين نأخذ ، إن شاء الله تعالى ، فى درس جوانب هذه الشخصية .

وأكبر الظن أن هذا الكتيب الذى خرج إلى الناس يحمل اسم « محمد فريد نجل مصطفى بك وجدى » قد أثار فى بيئة دمياط وفى الأوساط المتصلة بهذه الأسرة غير قليل من الإعجاب ، وخاصة لصدوره عن شاب ناشىء مثله ، لا يزال فى مرحلة الدراسة الثانوية . ولكنا نحسب — مع ذلك — أن أصداءه لم تكد تتجاوز ذلك النطاق . ولعل الصمت الذى أحاط به بعد ذلك كان — إلى جانب حساسية ذلك الشاب المفرطة — من أسباب ماكان يسيطر عليه أحيانا من تشاؤم ، نلمحه فى مثل هذه العبارات التى وردت فى رسالته التى كتب بها إلى صديقه — إذ ذاك — محمد رشيد رضا ، والتى نقلنا عنها ما تحدث به عن كتابه الذى كتبه بالفرنسية ، فقد قال فى عقب ذلك : « وكنت موطنا نفسى على عدم

---

(١) الفلسفة الحقة ، ص ٤٢ .

كتابة نتيجة أبحاثى الإسلامية باللغة العربية ، لاضننا على قومى بمعلوماتى ، ولكن لعلمى أن حظ المؤلفين بالعربية مبخوس ، وطالعهم فى أسفل دركات النحوس، وأن القوم قد أعرضوا عن المطالعة والاطلاع إعراضا يثبط العزائم ، ويحل عصم النوايا، فلا يجنى المؤلف من تعبه غير خسارة ومذلة تكرهان إليه الأقلام ، وتحرمان عليه استئناف الإقدام» .

ولكن التشاؤم المشوب بالغرور الساذج لم يكن بحيث يدفعه عن العمل ، ويصرفه عن المشاركة فى الحياة المصرية .

وبعد صدور هذا الكتاب بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٨٩٨ ، صدر كتابه الثانى ، وهو الكتاب الذى استهل به نشاطه فى سبيل الغاية التى اتجه إليها ، منذ شهوده مجالس الشيوخ فى بيت أبيه ، على النحو الذى رأينا . وقد أقبل بذلك على الدرس الدائب لكتب الدين ومايتصل به عنده من علوم الفلسفة والاجتماع وعلم النفس ، مستهدفا بذلك فهم الدين على حقيقته ، وتمثل صورته الصحيحة ، مبرأه مما لحق بها فى عصور الجمود والتراجع والتخلف من بدع وخرافات وأضاليل شوهتها ونكرت محياها ، حتى يستطيع أن يجلوها على العالم أجمع ، فى إطار علمى .

وهذا الكتاب هو كتاب « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » .

وقد أشرنا من قبل إلى شىء من قصة تأليف هذا الكتاب ، فى سياق حديثنا عن حياته منذ جاء دمياط مع أسرته سنة ١٨٩٤ ، واتجاهه إلى الدراسات الدينية ، وما جعل يبذله من جهد دائب فى القراءة والتأمل والمراجعة واستخراج النتائج ، حتى آنس من نفسه القوة على أن يكتب عن الإسلام كتابا ، رأى أن يضعه باللغة الفرنسية ، ثم بدا له بعد أن فرغ منه أن ينقله إلى العربية ، فكان هذا الكتاب الذى استهل به جهاده الدينى ، والذى يحدد غرضه منه بقوله فى مقدمته :

« . . . . على أنى كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه تسليه لى على ما أضعت من وظيفة وشهرة . كلا ! بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أن دين الإسلام ليس الدين الذى يتناساه ذووه ، أو يلوى الكشح عنه متبعوه ، وأنه ليس

بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية ، بل هى مما تزيده تثبيتا وتمكينا ، وتزيد متبعيه إيمانا ويقينا ، وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة انصارا اولى قوة ومكانة ، لا أن يرى منهم إعراضا وابتعادا يدلان الرائى على ما الإسلام برىء منه ، وبعيد بعد السماء عنه»[1]

فالوجهة التى اتجه إليها فى هذا الكتاب هى جلاء الإسلام فى الصورة التى لا يأباها العلم الحديث ، ولا ينكرها العلماء المحدثون ، ولا يجد طلاب العلوم الحديثة معها غضاضة فى متابعته والمناداة بمبادئه .

وقد كان يكفى فى تحقيق هذا الغرض أن يرد الإسلام إلى أصوله الأولى ، وأن يجرده مما لحق به وتراكم عليه فى العصور الأخيرة ، بل — فوق هذا — مما اندس إليه من مواريث الأمم التى دخلته ودانت له ، مما هو بعيد عن مبادئه أو مناقض لها ، وما اقتحمه بعد من أساليب الفلاسفة والمتفلسفة ، وما أدى إليه ذلك من مشاغبات ومماحكات ضاعت فى غبارها حقائقه وخفيت معالمه . وقد كان ذلك هو المنهج الذى انتهجه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، واستطاع ، بسعة علمه وصفاء بصيرته وقوة حجته وبلاغة عبارته ، أن يبلغ به فى جلاء صفحة الإسلام ، واضحة نقية ، مبلغا رائعا فريدا .

ولكن محمد فريد وجدى لم يكتف بذلك . وإنما أراد أن يضع المبادىء التى قام الإسلام عليها ، والتعاليم التى جاء بها ، كما تادت إليه أثناء دراساته الدينية ، بإزاء النواميس الكونية ، والمقررات التى تقررها

---

(١) الإسلام والمدنية ، ص ٥ ، الطبعة الثالثة . (وقد رأى أن يستبدل بالاسم الأول هذا الاسم لاختصاره) .

وانظر إلى أى شىء يشير قوله : « ... على ما أضعت من وظيفة وشهرة » . ربما كان يعنى انصرافه عن الدراسة المدرسية المؤدية إلى الوظائف وما تتيحه من منزلة فى المجتمع رفيعة .

العلوم العصرية ، كما جاءت فى كتب العلماء الأوروبيين التى أتيحت له ، ليكون ذلك أقوى فى الإقناع : إقناع الأوروبيين ، وإقناع المغترين من المسلمين بأقوال الأوربيين .

وكأنما احس بما قد يلقاه صنيعه هذا من إنكار بعض القراء الذين يربأون بالإسلام ان يقرن إلى غيره ، أو يحتاج إلى كلام الأوروبيين للاحتجاج له ، فقال ، معتذراً إلى هؤلاء :

« هذا وليغفر لى القراء الكرام كثرة استشهادى بأقوال علماء أوربا ، فإنى لم اقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين . كلا ! فإن الإسلام أجل من ذلك واعلا . بل قصدى ان ابرهن على أن كل نواميس المدنية التى سادت أوروبا فى القرون الأخيرة ليست بالنسبة لنواميس الإسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر »[1] .

ومن هذه الوجهة التى اتجه إليها فى كتابه ، والالتزام الذى التزمه ، كانت المصاعب التى يقول إنه تجشمها فى وضعه ، فقد كان عليه أن يستخلص مبادىء الإسلام وتعاليمه ويحيط بها إحاطة تامة ، وان يتمثلها تمثلا واضحا ، كما جاءت في المصادر الإسلامية الأولى ، وأن يحيط مع ذلك علما بنواميس الكون ، والقضايا العلمية الكبرى ، كما يقررها علماء الاجتماع وعلماء النفس ورجال الفلسفة ، ويتعرف إلى مواطن التقابل والتطابق ، وهو — مع هذا كله — فى مستهل حياته العلمية .

والحق أن الكتاب يمثل جهداً كبيراً واضحا بذل فيه ، سواء فى الناحية الإسلامية أم الناحية الاوربية . فقد استطاع مؤلفه أن يتمثل الإسلام فى روحه وقوانينه ، وفى كثير من جزئياته ، تمثلا واضحا ،

---

(١) الإسلام والمدنية ، ص ١١ ، الطبعة الثالثة .

واستطاع ان يستحضر الآيات القرآنية التي يستشهد بها ، بما يدل على أنه كان قد عكف على قراءة القرآن ودرسه وحفظ الكثير من آياته ، كما استطاع في مواطن كثيرة أن يستشهد بحديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم. وإن كان يخيل إلينا أنه لم يتح له أن يدرس علوم الحديث ومناهج روايته ، في ذلك الوقت ، وأنه اكتفى منه بما اتيح له في كتاب ككتاب إحياء علوم الدين للغزالي – وقد قال السيد محمد رشيد رضا إنه كان مما يقرأ – أو ما كان يقع في يده من بعض كتب الحديث الجامعة المتأخرة التي كانت تلقى رواجا في بعض الأوساط الدينية ، في ذلك الوقت ، ككتاب الجامع الصغير للسيوطي .

وأما الناحية الأوربية فما أكثر أسماء العلماء الأوربيين الذي يذكرهم ويستشهد في مواضع مختلفة بهم ، فينقل آراءهم ويترجم أقوالهم ، كأوجست كونت ، وهجل ، وسبنسر ، وكانت ، ورينان ، وجول سيمون ، وكوندرسيه ، وبرتيلو . وما أكثر المصادر الأوربية التي يحيل إليها ويترجم عنها ، كدائرة معارف لاروس ، وتاريخ الأديان لرينان ، والدين وينبوعه وأشكاله وترقيه لبنجامن كونستان ، والأبحاث الأخلاقية على الزمن الحاضر لـ كارو ، وحرية الاعتقاد لجول سيمون ، وقد احتفى بآرائه وآراء كارو في للديانة الطبيعية احتفاءاً ظاهراً ، منوهاً بها في غير موضع ، كما علق عليها قائلا : « لا شك أن كل من يمعن نظره فيمن قدمنا من نصوص الديانة الإسلامية ، وفي قواعد الديانة الطبيعية ، يرى بعينه أن الإسلام هو تلك الأمنية التي تحسسها الفلاسفة وتلمسوها في سائر أبحاثهم العلمية ، من قديم الزمان إلى الآن »[1] .

---

(١) ص ١٢٤ ، وانظر عن الديانة الطبيعية في هذا الكتاب ، مثلا ص ٣٣ في فصل : « الدين والعلم » ، وص ٣٨ — ٤٠ في فصل : « ماهو الدين » .

وقد تحدثنا حتى الآن عن ملابسات وضع هذا الكتاب ، والأهداف التي وضعها المؤلف نصب عينيه وهو يضعه . وتبينا صورة من الجهد الذي بذل فيه والقراءات التي سبقته أو صحبته . أما منهجه فيه فقد بدأه « بمقدمات ضرورية تنشيء للمطالع فكرة عامة عن حالة الإنسان، وتكاليف الحياة ، ونواميس الرق والتأخر التي تتجاذبه ، وطبيعة النظامات التي تنازعت السلطة على الإنسان من قديم الزمان إلى الآن، والخلاف الناشيء من زمان مديد بين العلم والدين ». كما تحدث في هذه المقدمات عن الحريات الضرورية للإنسان ، وهي : حرية النفس ، وحرية العقل ، وحرية العلم ، وجهاد الإنسان لنيلها ، وهو في ذلك لا يزال يعرض للإسلام وموقفه منها ، حتى خلص له ،متحدثاً في فصول عدة عن الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية التي يفرضها ، ويأخذ المسلمين بها ، وعن واجبات المسلمين فيما بينهم ، مستطرداً في أثناء ذلك إلى الكلام عن الرق في الإسلام . ثم عقد بعد ذلك فصولا ثلاثة عن واجبات المسلمين بالنسبة للذميين : وواجباتهم بالنسبة لمعاهديهم ، وواجباتهم بالنسبة لمحاربيهم . ثم ختم الكتاب بفصل عن الإسلام والمسلمين .

وقد وقع هذا الكتاب من البيئات العلمية الإسلامية موقعاً حسناً ، واستقبل فيها استقبالا كريماً . ومن ذلك تنويه مجلة المنار التي كان يصدرها السيد محمد رشيد رضا ، ويرعاها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وقد وصفت مؤلفه بأنه « الشاب الذي فاق الشيوخ أناة وكمالا وعلماً بعمله » .

ثم كتبت عنه بعد ذلك فصلا ضافياً تحدثت فيه عن مكانه بين المصنفات الإسلامية في القرون الأخيرة . وهي المصنفات التي قالت عنها : « إن أكثرها أو كلها مأخوذة من كتب المتقدمين ، نسخاً يشبه

المسيح ، وأنه لم يكن يوجد عندنا كتاب في الدين إذا عرض على متمدنى هذا العصر يأخذ من قلوبهم مأخذاً يستلفتهم إلى النظر فى الدين بتمثيله سائقاً لهم إلى سعادة الروح والجسد ، على الوجه الذى يناسب زمنهم وعمرانهم ، حتى قام حكيم الإسلام فى هذا العصر ، العلامة الشيخ محمد عبده . فألف رسالة التوحيد الشهيرة » .

ثم انتقلت إلى الحديث عن هذا الكتاب فقالت : « وكفى هذا الكتاب شرفاً أننا جعلناه ثانى كتاب رسالة التوحيد التى لم يؤلف مثلها فى الإسلام قط . ولعمرى إن مؤلفه الفاضل جرى على آثار الأستاذ الإمام فى الرسالة أسلوباً وبحثاً ، ولا يعيبه انه لم يبلغ شأوه بلاغة وتحقيقاً وتحريراً ، فالأستاذ حكيم الأمة فى هذا العصر ، وأبلغ كتاب العربية أجمعين . على أن فى الكتاب من الفوائد الكثيرة ما ليس فى الرسالة ، كما أن فيها ما ليس فيه ، فلا يستغنى بأحدهما عن الاخر »[1] .

ولعل من دلائل الحفاوة بهذا الكتاب والإقبال على قراءته أن أعيد طبعه سنة ١٩٠٤ ، أى بعد خمس سنوات . وقد جاء فى فاتحة هذه الطبعة :

« ... وإنا لنحمد الله على أن أولانا جزاء جهادنا فيه نفحة من مراحمه ، ظهرت آثارها فى قبول الأمة له بالحفاوة ، وتلقيها له بالتحبيذ والإطراء ، وقد تعدى الإعجاب به من العالم العربى إلى العالم التركى ، ثم إلى العالم الأوربى ، فترجمه إلى اللغة التركية بعض رجال القضاء ... وقررت نظارة معارف الدولة العلية تدريسه فى المدرسة الإعدادية الكلية ببيروت ... أما سريان هذا الأثر إلى العالم

---

(١) مجلة المنار ، الجزء السابع ، السنة الثانية (٢٩ إبريل سنة ١٨٩٩) .

الأوربى فقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة البوسنوية بواسطة أحد العلماء المدرسين فى مدارسها . وتنشره جريدة (بهار) بتلك اللغة تباعاً فى أعدادها من هذه السنة .

ثم طبع للمرة الثالثة سنة ١٩١٢ ، وجاء فى فاتحة هذه الطبعة :

«ليس لدينا ما نزيده على ما قدمناه فى الطبعتين الأولين إلا أن هذا الكتاب أعادت ترجمته إلى اللغة التركية مجلة (صراط مستقيم العثمانية)، وترجم إلى اللغة الأوردية بالهند . ثم إلى اللغة الفارسية بفارس ، ثم إلى التتارية بالقازان» .

وهكذا نرى أن هذا الكتاب لم يقف الترحيب به والإقبال عليه عند حدود البيئات الإسلامية المصرية ، أو الإسلامية العربية ، بل أخذ مكانه فى البيئات الإسلامية غير العربية . وكان بذلك — فيما نحسب — الأصل فى المنزلة الرفيعة والشهرة الذائعة التى ظفر بها محمد فريد وجدى فى العالم الإسلامى .

لم يطل مقام محمد فريد وجدى فى دمياط بعد صدور كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » ، إذ لم يلبث أن انتقل مع أسرته إلى مدينة السويس ، بعد أن صدر أمر وزارة الداخلية بنقل أبيه إليها ، فى مثل وظيفته بدمياط .

وما أحسب أنه كان لهذا الانتقال أثر فى حياته ، بمعنى أنه أضاف إليها عاملا جديداً ، إلا أنه أتاح له تجربة جديدة محدودة ، بما عرض له من صور اجتماعية تختلف فى بعض تفاصيلها عن الصور التى أتيحت له فى الاسكندرية والقاهرة ودمياط[1] . وسواء كان فى دمياط أم فى السويس أم فى القاهرة ، فهو ماض فى الطريق الذى خط له ؛ مقبلا عليه ، سعيداً به . وقد بدأ هذا الطريق ضيقاً متعثراً بتأليف كتاب « الفلسفة الحقة » ، ولكنه ما لبث أن اتسع وتمهد بتأليف كتاب « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » ، وقد فتح له آفاقاً جديدة ممتدة ، كما جعل يزيد رحابة ، ويتشعب شعبا ، كلما امتد الزمن به ، وازدادت تجاربه .

والفترة التى امضاها فى السويس تبلغ نحواً من ست سنوات ، بدأت بانتقاله إليها فى أوائل سنة ١٨٩٩ ، فيما نقدر ، وانتهت بانتقاله منها واتخاذه القاهرة موطناً له فى شهر إبريل سنة ١٩٠٥ ؛ كما سنرى ذلك بعد. وإن كنا نحسب مع ذلك أن صلته بالقاهرة لم تنقطع مدة إقامته بالسويس

---

(١) من ذلك ماذكره فى سياق الفصل الذى كتبه عن الزار فى دائرة معارف القرن العشرين

وأنه كان ما يزال يتردد عليها، من أجل كتبه ومجلة الحياة التى كان يطبعها فى مطابعها .

ويبدو أن إصدار مجلة خاصة به كان أول شىء أزمعه بعد انتقاله إلى السويس . أما متى بدأ تفكيره فيها ؛ فلعل ذلك كان منذ أخذ السيد محمد رشيد رضا — فى لقائهما بدمياط — يحدثه عن مشروعه الذى جاء من الشام يحمله فى رأسه لينفذه فى مصر ، وهو إنشاء جريدة إسلامية ، وقد أعجب به ، ونشطه — كما يقول السيد رشيد — عليه ، ووعده — تعبيراً عن إعجابه بهذا المشروع — أن يكتب فى هذه الجريدة .

ولم يكن إصدار مجلة أمرا بالغ العسر شديد التعقيد، تتكاءده الصعوبات وتستهلك التفكير فيه العقبات ، كما هو الأمر فى هذه الأيام . فلم يكن على منشىء المجلة إلا أن يملك القدرة على الوفاء بمادتها الأدبية . أو يعرف الوسيلة إليها ، كما يملك — أو يستطيع أن يدبر — مورداً مالياً يؤدى ثمن الورق وأجر الطبع .

ولا نعلم أن ذلك الشاب الناشىء الذى كان يعيش مع أسرته كان له مورد مالى خاص به ، ولا نكاد نشك فى أن أباه هو الذى انفق على إخراج كتابيه السابقين . وربما كان حسن استقبال القراء لهما ، أو لثانيهما خاصة ، وما لقى من رواج فى كثير من الأوساط ، مما يسر له أمر هذا المورد ، وهون له من أمر التكاليف المالية لمشروعه .

وأما المادة الأدبية فقد كانت هى حافزه الأول على التفكير فى إصدار مجلة خاصة به . فالأفكار التى تستبد به ، والتأملات التى تملأ حياته ، والقراءات المختلفة التى تتجاوب نفسه بأصدائها ، والاهداف التى مثلت امامه واضحة ثابتة لا يكاد يرى شيئاً غيرها ، كل اولئك كان لا بد له من متنفس يتنفس به ومن وسيلة يتحقق بها، ولا شىء يكفى فى ذلك الآن تكون

له مجلته الخاصة، يودعها هذه الآراء، ويحملها هذه التأملات ،وينقل فيها طرفا من هذه القراءات ، ويجعلها رسوله إلى قرائه الذين انفتح سبيله إليهم بكتابه ،ووسيلة لتحقيق اهدافه ،كما يمكن بها لذلك المجد الأدبي الذى جعل يتخايل له ويتبرج .

وهكذا لم تكد الأسرة تستقر فى مدينة السويس حتى اخذ فى مواجهة ذلك المشروع ، ووضعه موضع التنفيذ، دون ان يثبط من عزيمته كونه بعيدا عن القاهرة ، مركز النشاط الأدبي . فقد كان للأقاليم فى ذلك الوقت مشاركتها الواضحة فى إصدار المجلات الأدبية . وقد أعانه ـ ولا ريب ـ طموحه وحماسته وحيويته الجياشة على اجتياز العقبات التى نقدر أنها أثيرت فى وجهه ، أو تجاهلها .

ولعله اتجه إلى الاستعانة بخبرة صديقه ـ إذ ذاك ـ السيد محمد رشيد رضا الذى كان قد أصدر فى العام السابق جريدته المنار، أى فى نفس العام الذى تحدث فى أيامه الأولى معه عنها ـ وإن كنا نحسب أن رشيد رضا كان يكاتم فى نفسه ضيقه بأن ينفرد صاحبه بإصدار مجله إسلامية خاصة تصرفه عن الكتابة فى مجلته كما كان وعده من قبل ـ ومهما يكن من أمر فربما كان من مظاهر استعانته به أنه بدأ يطبع مجلة الحياة فى مطبعة المنار .

وقد صدر العدد الأول من « الحياة » فى « غرة صفر سنة ١٣١٧ ـ ٩ يونيه سنة ١٨٩٩ » وكتب فى فاتحته هذه العبارات التى قد تحمل من الدلالة على ما كان يغلب عليه من بعض موضوعات القراءة والدرس التى تتردد اصداؤها فى خلالها، ما يحملنا على ايرادها :

« الحمد لله على الإيمان والإسلام ، والشكر له على ما حبانا من الإنعام، حمداً وشكراً يتلازمان على الدوام،ويتجددان بتجدد الأيام.وصل اللهم على من آتيته خزائن الحكمة فافحم الحكماء، وحبوته مفاتح العلم

فأعجز العلماء ، قطب دائرة الكمال الأسنى ، والمظهر الأكمل لأسمائك الحسنى، سيد الوجود محمد عبدك ونبيك ورسولك،وعلى آله وصحبه، ومتبعيه ، وسلم تسليماً كثيرا .

اللهم ان هذا موقف صعب قد وقفته على ضعف منى، فقونى بقوتك، وامدنى بحولك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم ان هذا موضع قد تزل فيها الأقدام وتضل فيه الأفهام ،فاجعل لى من واسع حكمتك نبراساً استنير به مناهج الرشدفانهجها ، واستبين مخالج الغى فاتنكبها . إنك سميع الدعاء واسع العطاء ، آمين » .

ثم كتب بعد هذه الفاتحة فصلا طويلا بعنوان « مقصد الحياة » ، تحدث فيه عن بعض عوامل التطور الاجتماعى ومظاهره ، ليخلص من ذلك إلى الحديث عن عامل الاتصال بين الشرق والغرب فى هذه الفترة الأخيرة ، وما نشأ عن ذلك الاتصال بين مجتمعين : أحدهما فى غاية بهائه ولألائه ، والآخر فى ظلام طال إطباقه عليه ، واستسلامه له، فهو فى عشوة مطلقة ، بسبب انبهاره بالمجتمع الأول . وإذ كان عاجزاً بطبيعة الحال عن مجاراته ، فقد غلبت عليه روح التقليد ، فانساق لها ، فجعل يقلده فى مظاهر سلوكه ، وفى صور أخلاقه وعوائده . ثم لم تلبث هذه الروح أن تسللت إلى العقائد ، فنشأت فى الشرق ناشئة تتظاهر بالالحاد وتفاخر به ، باعتبار أن ذلك غاية التمدن الذى تحرص هذه الناشئة على أن تعرف به ، وتوسم بسمته، ثم خلص ، بعد ذلك، إلى صميم الكلام فى مقصد « الحياة » . فقال :

«فمقصد (الحياة) — والحالة هذه — هو الحيلولة بين مكاريب الالحاد وأذهان أبناء الشرق ، ولذلك فهى ستجعل مطمح نظرها جملة نقط مهمة : أولاها إقامة أقوى الأدلة العلمية على أن الديانة

الإسلامية هي روح العمران ، وقوام سعادة الإنسان ، بطرق لا تجعل للشكوك مجالا فى الأذهان . وستسلك لهذا الغرض المسالك العصرية ، وتأييد أقاويلها بالحجج الفلسفية الحسية . ثانيها: تثبيت الأحوال الدينية فى العقول الطموحة، كاثبات وجود الله تعالى، والروح والآخرة، بالأدلة الدامغة . وستعتمد فى ذلك على تحقيقات العلماء العصريين جرياً مع سنة الزمان، اعتقاداً منا بأن نشأتنا الحديثة أحوج إلى هذه الخدمة منها إلى سواها ، وإيقاناً من لدنا بأن نقش أصول العقائد فى أذهانها بالطرق العصرية أنفع لها وللبلاد من تعليمهم الطبيعة والكيمياء »

فمجلة الحياة إذن — كما أرادها — مجلة خاصة بأدق معانى الخصوصية إذ تعالج موضوعا خاصاً ، وتهدف إلى غرض معين ، هو مقاومة الالحاد؛ وتتخذ لذلك من الوسائل ما هو مطبوع بطابع خاص ،وهو مايشتق كيانه من العلم العصرى ومناهجه الحسية ، على النحو الذى ذكره هنا ، والذى كرره فى مقدمة السنة الثانية إذ يقول :

« أما بعد ، فإننا أسسنا هذه المجلة فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية ومطمح نظرنا غرضان مهمان ، وهما : تثبيت أصول الدين الإسلامى الحنيف فى عقول أبنائه بنتائج العلم العصرى ، وإقامة الأدلة العمرانية والفلسفية على أن هذا الدين الكريم هو منتهى ما يصل إليه الإنسان من حقيقة الدين، وغاية ماتدفعه إليه استعداداته الفطرية المزوية فى طى مواهبه الطبيعية » .

وهى تختلف بهذا عن جمهرة المجلات التى كانت تصدر إذ ذاك، والتى كانت مجلات عامة، حتى مجلة المنار التى وصفت نفسها فى صدرها بأنها جريدة علمية أدبية سياسية، بالرغم من صفة صاحبها الدينية، وحرصه على أن يوفر لجريدته الطابع الإسلامى .

وقد التزمت « الحياة » بهذا التخصص التزاماً دقيقاً لم تتجاوزه إلا فى الفرط والندرة ، حتى لقد اقترح عليها أن تفتح باباً للاجابة على أسئلة القراء فاشترطت لذلك « ألا تتعدى الأسئلة حدود المسائل الفلسفية والأمور الإسلامية لأن موضوع المجلة لا يسمح بغير هذا » . وواضح أنها لا تقصد بالمسائل الفلسفية الفلسفة البحتة وإنما تقصد ما يتصل منها ببيان حقيقة الإسلام خاصة أو الدين عامة ، أو ما يستخدم منها فى الاحتجاج لذلك .

وعن هذا التخصص كانت تصدر أبحاثها ودراساتها ، حتى الطرائف والشذرات التى كانت تذيل بها بعض أعـــدادها يلاحظ هذا الاتجاه فيها .

ويظهر أن محمد فريد وجدى ، محررها ، أراد منذ العدد الأول أن يكون بناؤها على أبواب ثابتة هى الأبواب التى يراها مؤدية إلى تحقيق أغراضها . وفى كل عدد من أعدادها يكتب فصلا من كل باب ، بحيث تتكون من هذه الفصول الموزعة بين أعداد المجلة دراسات متكاملة وأن كان من هذه الأبواب التى فتحها مالم يتابعه .

فقد نشر فى العدد الأول مقاله بعنوان : « تغذية الجنان ببدائع الأكوان » قال فى مستهلها : « لم نربدا من فتح هذا الباب فى الحياة ، لتلاشى الأوهام الفاسدة التى سادت على بعض العقول، من أن علم الطبيعة يقوض أركان الإيمان ، وينسف بناء العقائد من الوجدان » ، ثم قال فى ختامها : « نكتفى فى هذا العدد بهذا القدر ، وأعدين إن شاء الله بمتابعة الـكلام فى هذا الموضوع السامى ، وسرد بدائع صنع الله ، فى قالب فلسفى ، تتغذى به الأرواح ، وتهيم بلا أقداح » . ولعل ضيق نطاق المجلة ، واهتمامه بأبواب أخرى أمس بغايتها وأوثق صلة بصميم غرضها، كان مما حال بينه وبين متابعة هذا الموضوع الذى تعود أصوله

إلى كتابه « الفلسفة الحقة » . وكذلك ختم المقالة التالية التى جعلها فى إثبات وجود الله تعالى ، بكلمة : « البقية تاتى » ، كما ختم مقالة « ما وراء المادة » بقوله : « نكتفى فى هذا العدد بهذا القدر ، واعدين ، إن شاء الله ، باستيفاء البحث فى هذه المسألة وإيراد شهادات العلماء على صحتها ، مع سرد العجائب المدهشة التى فحصها العلماء بأنفسهم . . . » . وقد ظل باب ما وراء المادة مفتوحاً على مصراعيه .

وفى العدد الثانى استحدث باباً بعنوان : « معجزات الاسلام الخالدة » وقد استمر هذا الباب مفتوحاً حتى العدد السادس . كما استحدث باباً جديداً لمقامات خيالية تتجه إلى تقرير المبادىء التى يؤمن بها ويدعو إليها ، وجعلها بعنوان . « وصف الحال بلسان الخيال » . وهو باب استمر طويلا فى الحياة ، متطوراً فى أسلوبه وموضوعاته ، كما اتخذت هذه المقامات عناوين مختلفة ، فقد أصبح عنوانها فى العدد السابع : « حقائق فى خيالات » ، ثم صارت بعد « الوجديات » .

وفى العدد الثالث استحدث باباً بعنوان : « الشبهات العصرية على الأديان ونفيها عن الإسلام » . وقد استمر هذا الباب طوال السنة الأولى ، ثم استأنفه بعد ذلك فى السنة الثالثة .

وكذلك افتتح فى هذا العدد باباً للاجابة على أسئلة القراء . وقد استكمل فى هذا الباب ، فى هذا العدد ، وفى عدد تال ، الموضوع الذى كان بدأه فى العدد الأول عن « إثبات وجود الله تعالى » . ولا ريب أن هذا الباب قد وثق ما بينه وبين قرائه ، إذ أتاح له من الاتصال بهم والتعرف إلى اتجاهاتهم ونوازعهم مالم يكن له بد منه ، كما فتح له أبواباً من القراءة والاطلاع والمراجعة تقتضيها هذه الأسئلة والإجابة عليها .

وكل هذه الأبواب كان ينفرد بتحريرها .

والباب الوحيد الذى وكله إلى غيره هو الباب الذى كان يحرره الدكتور محمود السركى ، عن التربية الصحية . وقد قدم له محمد فريد وجدى بقوله: « لما كانت هذه المجلة إسلامية ، وكان غرض الإسلام سعادة الحياتين : الدنيوية والأخروية، وحفظ الصحتين:الجسمية والروحية.رأينا ألا نغفل أمر الجثمان ، كى لا نقع فى تفريط ليس له غفران » .

على أن هنالك طائفة من المقالات لم تكن تدخل نصاً فى هذه الأبواب وإن وقعت فى صميم أغراض المجله ، وبعض هذه المقالات يعالج موضوعاً واحداً كمقالاته عن الدين عامة ، وأن الإسلام هو دين الفطرة ، وبعضها كانت تحفزه إلى كتابته مناسبة عرضت، كمقاله عن الصلاة والصيام فى إقبال شهر رمضان ، ومقاله عن « القرن التاسع عشر ، وآثاره على الغرب والشرق من جهة التدين » ، فى ختام ذلك القرن ، ومقاله عن « الجامعة الإسلامية » بمناسبة كثرة الحديث عنها فى تلك الأيام .

واستمرت مجلة الحياة تصدر تباعاً، أول كل شهر هجرى، من شهر صفر سنة ١٣١٧ ، حتى شهر رجب ، سنة ١٣١٨ . أى من شهر يونية سنة ١٨٩٩ إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٠

وبعد هذه الشهور الثمانية عشر انقطعت عن الصدور ، دون إنذار سابق ، ودون أن يعرف أحد — من غير خاصة صاحبها — سبب توقفها. وحين عرض فريد وجدى لهذا التوقف عندما استأنف إصدارها بعد خمس سنين لم يقل أكثر من أنه بدا له أن يعطلها لأسباب عديدة .

وإذا نحن حاولنا — من خلال ما بين أيدينا من ملابسات — أن نتلمس ما لعله يكون من هذه الأسباب ، وجدنا فى ذيل آخر صفحة من

صفحات آخر عدد (وهو العـدد السادس من السنة الثانية) اعتذاراً مقتضباً عن عدم استطاعته الإجابة على الأسئله التى وجهت إليه، « مراعاة لحالتنا الصحية » ، فنعلم من هذا أنه كان ، إذ ذاك ، يعانى ضعفاً صحياً، وإن كنا لا نعلم مدى هذا الضعف ، إلا أنه كان يحول بينه وبين ممارسة بعض وجوه نشاطه فى الدرس والمراجعة والكتابة . فهل كان ذلك هو السبب فى توقف الحياة ؟ أم أن هذه « الحالة الصحية » كانت أثراً من آثار الاجهاد الفكرى والعصبى الذى كان يعانيه فى أثناء إصدار هذه المجلة ومواجهة شواغلها وتكاليفها ، مع قلة تجربته فى تصريف أمورها المادية ؟

لقد أنشأ هذه المجلة استجابة للمثل العليا التى كانت تلح عليه و تتخايل له وتستبد بوجدانه ، وكان ذلك — إلى جانب غرارته فيما يتصل بالأمور المادية — مما جعله يستهين بهذه الأمور أو يتجاهلها ،تلمح ذلك فى الفقرة التى كتبها فى العدد الثانى ، وكان حين أصدر العدد الأول جعل - بواسطة بعض أصدقائه - يبعث به إلى بعض الأشخاص الذين كان يتوسم فيهم تشجيعه وشد أزره . ولكن بعض هؤلاء ردوه إليه ، فآذاه ذلك - ولا ريب - وأثار كبرياءه ، وكان مما كتب فى ذلك :

« . . . ونحن فى هذا المقام نفصح لقرائنا أنا لم نقصد بهذا العمل إلا أداء خدمة حقيقية للامة والملة، تحققنا أنها انجع دواء وأشرف غاية؛ فمن رأى رأينا شكرناه، ومن لم ير رأينا احترمنا فكره، ورجوناه أن يرد إلينا المجلة، فلسنا محتاجين لأية مساعدة مادية ولله الحمد . بل إننا أسسنا هذا العمل وفى نيتنا الصرف عليه لا التكسب منه ؛ وفى زهادة قيمة الاشتراك[1] ، مع ما نوزعه من الأعداد الكثيرة مجاناً ، دليل لمن يتأمل » .

---

(١) كانت قيمة اشتراك مجلة الحياة خمسة عشر قرشا فى السنة .

ولكن هذه المثالية التي لم تكن ترى في هذه المجلة إلا أنها « خدمة للأمة والملة » ، وأنها أنجع دواء وأشرف غاية ، فما ينبغي أن تكون — وهي بهذه المثابة — وسيلة تكسب ، كما لا ينبغي أن تحول دونها عقبات المادة أو تتأثر بعقابيلها ، فلمثلها يكون البذل وتهون التكاليف ، هذه المثالية لم تلبث أن اصطدمت بالواقع ودخلت في صراع معه . وقد تمثل هذا الواقع في أمرين : فيما كان يستلزمه إصدار المجلة من تكاليف مادية تتضاعف شهراً بعد شهر ، وفي أخلاق الناس وسلوكهم وعاداتهم . وقد تكشفوا له في هذه العلاقة التي نشأت بينهم وبينه ، حين كانوا يبعثون إليه بأن يعتبرهم مشتركين في مجلته دون أن يعنوا بإرسال قيمة اشتراكهم ، وإذا هو يواجه بما لم يكن يقدر من تكاليف تفوق طاقته وتتجاوز مدى تدبيره ، فإذا بعث إليهم يرجوهم سداد الاشتراك لم يجد الاستجابة من كثير منهم ، وتتضاعف الخسائر ، وينشأ الصراع بين المثالية والواقع ، ولا يجد بداً في نهاية السنة الأولى من أن يقف إرسال المجلة إلى أربعمائة وخمسين مشتركاً لم يسددوا اشتراكاتهم .

ولكنه — مع ذلك — لم يستسلم في هذا الصراع ، بل مضى في إصدار مجلته في السنة الثانية ، وقد زاد صفحاتها ملزمة تزيد — ولا ريب — أعباءه المادية . ومازال سلوك عدد من المشتركين كما هو ، ومازالت خسائر المجلة تتضاعف ، كما نرى ذلك فيما نشره في الصفحة الأخيرة ، من العدد الخامس من هذه السنة ، إذ يقول — بما لا نرى بأساً في إيراده هنا ، لدلالته على ما نحن بصدده من إبراز ملامح شخصيته وملابسات حياته في هذه الفترة — :

« إننا وإن كنا لا نود فائدة مادية من هذه المجلة ، إلا أننا لا نود أيضاً أن نخسر فيها كثيراً ، وإننا لم نتشجع على تحمل كل هذه الخسائر المالية إلا لما نعلمه من شغف الخاصة والعامة بمطالعة ما نكتبه ونجهد فيه أنفسنا

شهرياً . وقد أرسلنا في الشهر الماضي إعلانا لكل قارىء ، وانتظرنا النتيجة منه ، فقوبلنا بالإغضاء التام ، مع أنه لم يوجد واحد من الذين أرسلنا إليهم ذلك الإعلان إلا وهو طالب الاشتراك بنفسه وبغاية الامتنان . نعم إن إرسال تلك القيمة مهما كانت زهيـــدة فيه بعض التكاليف على حضراتهم . ولكن إذا كانوا لا يودون تعب بضع دقائق مرة في كل سنة ، في سبيل تشييد مشروع ضروري مثل هذا ، فهل يروق في أعينهم بعد ذلك أن نعطل أوقاتنا ونشغل أفكارنا ونبذل دنانيرنا كل يوم ، بل كل ساعة ، ثم نلجأ بعد ذلك إلى تكرار طلب قيمة نأنف من ذكرها . نظن أن ليس في قرائنا واحد تروق لديه هذه الحالة . وإننا لم نتشبث بطلب الإسراع في دفع هذه القيمة إلا تحامياً من مثل خسائر السنة الماضية ، فإن أربعمائة وخمسين مشتركاً تأخروا عن الدفع ، فقطعنا عنهم المجلة . ولا يخفى ما لحقنا من الخسائر من جراء هذا الكسل . وبناء على هذا كله نؤمل من حضرات القراء ألا يلجئوا هذه اليراعة لأن تنزل من الكتابة في تلك المباحث الجليلة إلى تحرير أمثال هذه الطلبات التافهة ».

وفي هذه السطور نحس بمدى الصراع الذي كان يتمثل في نفس محمد فريد وجدي بين مثاليته التي كانت تحفزه بقوة ودأب إلى المضي في تشييد مشروع الحياة، حتى يبلغ غايته التي كانت ماثلة في نفسه؛ وبين الضرورات المادية والأزمات المالية التي كانت تحاول أن تدفعه عنه، وتصرفه عن المضي فيه .

لقد كان إصدار هذه المجلة تجربة — ولا ريب — حبيبة الى نفسه أثيرة عنده، إذ كانت استجابة لتلك المثالية الغالبة عليه؛ ولكنها كانت في الوقت نفسه تجربة قاسية مريرة بما جعلت تعرض عليه من صور في الحياة بغيضة ، وما أخذت تقيم في طريقه من عوامل التثبيط ودواعي النكوص ، وما كانت تثيره في نفسه من ذلك العراك .

وها هو ذا يلح — فى كراهية ومضض — فى دعاء المشتركين أن يسارعوا الى مؤازرته بتسديد اشتراكاتهم . وأن يكونوا عونه فى الإبقاء على ذلك المشروع ، حتى لا تتعرض « الحياة » لمثل ما تعرضت له فى السنة الماضية من خسائر ، وحتى لا تواجه ما يتهددها من التوقف عن الصدور . وها هو ذا يتلطف فى الدعاء غاية التلطف ، ويترفق فى التنبيه غاية الترفق ؛ لعله يثير نخوة المشتركين ، فيبادروا الى تلبية دعائه ، ويعينوه بتسديد اشتراكاتهم على انقاذ المجلة من المصير الذى يتهددها . ولكن يبدو أن حظ هذا الدعاء لم يكن أفضل من حظ دعائه فى السنة الأولى . فلم يلبث أن تلاشى فى مطاوى الاستخفاف والإهمال وسوء التقدير ، حتى لم يعد فى طاقته أن يستمر فى مواجهة هذه الخسائر المتضاعفة ، ومواجهة ما لعله كان يصحبها من لوم ذويه وتثريبهم ، وما كان يترتب على ذلك كله من ضعف صحته وكلال قوته . وبذلك توقفت المجلة عند العدد السادس ، وهو العدد الوحيد الذى صدر بعد ذلك الدعاء ، أو ذلك « الاستلفات المهم لحضرات القراء » ، كما كان عنوانه .

وبذلك انتهت هذه المرحلة من مراحل مجلة الحياة . وسنتحدث إن شاء الله ، عن مراحلها الأخرى فى مكانها من سياق هذا البحث .

لم تكن مجلة الحياة بنطاقها الضيق وصفحاتها المحدودة وتخصصها الدقيق لتستغرق طاقة محمد فريد وجدى ،أو تتسع لوجوه نشاطه المختلفة؛ فكان يجد فى الصحافة اليومية مجالا ثانيا يمارس فيه نشاطه الفكرى ، بما يكتب من فصول فى مسائل الدين والاجتماع ، مما يتصـــل ببعض الأحداث العامة .

وهناك صحيفتان نعرف أنه اتخذ منهما — فى ذلك الوقت — متنفساً له ، ومجالا حيوياً يمد إليه نشاطه ، وهما اللواء والمؤيد .

أما اللواء فإنه يحكى لنا قصة اتصاله به ، ومشاركته فى تحريره ، فى سياق حديثه عن مصطفى كامل وتاريخ صلته به ، إذ يقول إنه تلقى منه ذات يوم — وكان إذ ذاك يحرر مجلة الحياة ، وكان مصطفى كامل يستعد لإصدار اللواء — خطاباً يؤذنه فيه بعزمه على إصدار جريدته ويدعوه فيه إلى إمدادها ببعض المباحث الدينية والاجتماعية . فوجدت هذه الدعوة منه قلباً مفتوحاً ، وسارع بتلبيتها ، وجعل يوالى إرسال مقالاته إلى اللواء حتى كتب له نحوا من عشرين مقالة فى مواضيع اجتماعية ودينية مختلفة ، كما يقول : إلى أن حدث شىء من سوء التفاهم بينه وبين مصطفى كامل ، ربما عرضنا له فى مناسبة أخرى . فنقل نشاطه إلى جريدة المؤيد ، أو بعبارة أخرى أعاده إليها .

ذلك أن جريدة المؤيد كانت هى الجريدة التى اتخذها لنشر مقالاته قبل ظهور جريدة اللواء (فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠)؛ وفيها نشر مقالاته فى الرد على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ، بعد ظهوره سنة ١٨٩٩ . وهى

المقالات التى أشار إليها فى سياق حديثه الذى أوردناه قبل فى تحقيق سنة ميلاده .

كما كان من المقالات التى نشرها فى المؤيد أيضا بعد ذلك فى شهر شهر أبريل سنة ١٩٠٠ ، مقالاته التى شارك بها فى حركة الرد على هانوتو .

وهانوتو هو أحد علماء فرنسا وكبار مؤرخيها، وواحد من أبرز ساستها وأعضاء مجمعها العلمى ؛ وقد عرف بكتابه عن الكاردينال دى ريشيليو وبحثه فى تاريخ الأمة الفرنسية .

وكان قد نشر فى جريدة الجورنال الفرنسية مقالتين عن الإسلام والمسألة الإسلامية ، شاب فيهما حديث العلم بحديث السياسة ، وتحدث فيهما عما سماه المدنية الآرية المسيحية التى وقفت الإسلام وصدت انبعاثه ، وعن الصراع بينها وبينه قديما وحديثا . وقد رد الخلاف بينهما إلى الخلاف بين مذهبين أساسيين فى إدراك الإنسان للألوهية وموقفه منها : أحدهما « يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الإنسان فى حضيض الضعف والوهن . ويذهب الثانى إلى رفع مرتبة الإنسان ، وتخويله حق القرب من الذات الإلهية ، بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال طيبات وحسنات » .

وعن هذين المذهبين اختلف سلوك الإنسان فى الحياة ، « فالنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هى تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته وإيهان عزيمته ، بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل وتلق به فى غمرات التنافس الحيوى » .

ويرى هانوتو أن هذين المذهبين تمثلا فى العالم القديم بالبوذيين الذى دانوا بالمذهب الأول ، وقدماء اليونان الذين دانوا بالمذهب الثانى . ثم يقول :

« وقد ظهرت على أطلال العالم القديم ، وبعد خمسمائة عام من انقضائه ، ديانتان : إحداهما ربانية والثانية بشرية ، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ، وإنما بتلطيف فى التناقض . أما الأولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة لآثار الآريين ، والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وإن كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية ، فى حين أن الديانة الثانية وهى الإسلام ، المشوبة بتأثير مذهب السامية ، تنحط بالإنسان إلى أسفل درك ، وترفع الإله عنه فى علاء لا نهاية له »

ونقلت جريدة المؤيد هاتين المقالتين إلى العربية ، ونشرتهما على صفحاتها . ولم يكادا يظهران حتى انبرى لنقد ما فيهما عن الإسلام وتفنيد الدعاوى المبنية على فهم خاطىء له ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وانبعثت من بعده حركة نقد قوية نشيطة شارك فيها كثير من العلماء والأدباء .

وكان ممن شارك فيها ذلك الشاب الناشىء محمد فريد وجدى « محرر مجلة الحياة » — كما كان يوقع مقالاته الثلاث التى نشرها بعنوان : « نظرة على مقال المسيو هانوتو » ، وتناول فيها قضية الدين التى جعلها هانوتو قضية عنصرية ، تتبع الآرية والسامية ، وتختلف بالخلاف المزعوم بينهما ، أما هو فقد تكلم عن الدين عامة من حيث هو أمر فطرى فى طبيعة الإنسان وكيانه ، ومن حيث تطوره وصوره فى خلال القرون ، إلى أن تيقظ العقل ، واتخذ مكانه فى حياة الإنسان فنشأ العلم

وبدأ الصراع بينه وبين الدين ، حتى إذا انتهى من هذا العرض ذهب إلى أن الإسلام ، الذى رماه هانوتو بأنه الدين الذى انحط بالإنسان إلى أسفل درك إنمـــا هو الدين الذى يمثل المرحلة الأخيرة من ذلك التطور، وأنه هو « دين الفطرة المنشود» كما هو عنوان المقال الثالث والأخير[1] .

(١) جريدة المؤيد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٠ .

وفيما كان محمد فريد وجدى مشغولا بتحرير الحياة وإدارتها وتصريف شئونها ، وكتابة المقالات الدينية والاجتماعية يبعث بها إلى المؤيد تارة وإلى اللواء تارة أخرى ، كان — فى الوقت نفسه — دائبا على درس بعض المسائل التى عرضت له درسا متعمقا مستقصيا : يتناولها من جميع جهاتها ، ويتتبعها فى سائر مصادرها ؛ مصطنعا فى ذلك أسلوب التأليف .

وكانت مسألة الدين ، باعتباره أصلا إنسانيا عاما ، من أول ما جعل يشغله ويصرف تفكيره ، ويحمله على تتبعه وتقصى الآراء المختلفة فيه إذ كان يرى أن فهم الدين الإسلامى بخصوصه فهما صحيحا قائما على المنهج العلمى ، ينبغى أن يكون مسبوقا بفهم الدين عامة .

ويبدو أن التفكير فى هذه المسألة ودرسها يرجع إلى الوقت الذى كان يضع فيه كتابه : «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية» . فقد عقد فيه فصلا عن «ماهية الدين» . قال فيه ، «ونحن هنا ، قبل أن نتكلم عن ماهية الدين بالمعنى المراد للإسلام ، يجب علينا أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوربا من هذه اللفظة» . وقد أداه البحث عن ماهية الدين عند علماء أوربا إلى الوقوف على آراء أصحاب الديانة الطبيعية ، وهى الديانة التى تقوم على أصل التدين فى عمومه . واقتضته الدراسة التى كان يقوم بها أن يحاول استخلاص مبادىء هذه الديانة ، وتعرف وجوه التقابل بين مبادىء الإسلام وبينها .

ثم زاه بعد ذلك ، فى أول عدد يصدره من مجلة الحياة ، يعقد فصلا

عن « إثبات وجود الله تعالى » ، وفى نيته — كما رأينا من قبل — أن يفتح بهذا الفصل بابا من أبواب الحياة . وإن كان اكتفى بعد بأن يعود إلى هذا الموضوع بين وقت وآخر ، فى صورة جواب على سؤال . وكأنما بدا له ، منذ ذلك الوقت ، حين رأى تشعب البحث واتساع جوانب الموضوع ، أن يجعله موضوع كتاب خاص . لأنه أوسع من ان يكون بابا من أبواب الحياة ، او لأنه يحتاج من الدراسة المتأنية المستفيضة المنظمة مالا يتفق مع دواعى النشر .

كما نراه فى أثناء إصداره الحياة ، وفى اواخر سنتها الأولى ، يتناول هذا الموضوع فيما كتبه فى جريدة المؤيد ، ردا على هانوتو . كما اشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

فإذا كان العدد الثانى من السنة الثانية من الحياة فقد اعلن ان« منشىء هذه المجلة عزم على طبع كتاب له بعنوان : (الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الحضرة الإلهية بالأدلة الطبيعية) . وقال :« ان موضوعه إثبات وجود الله تعالى بالأدلة العلمية الجديدة ، على مقتضى الأسلوب الحسى الذى لا يصح المراء فى مقدماته ولا نتائجه، لاستنادها على البداءة العلمية والمشاهدات التجريبية . وقد سرد فيه ما يقيمه الملحدة من الشبه الجديدة وكر عليها بالأدلة التى من نوعها ، مستظهرا بالفلسفة الحسية ، وهى فلسفة العصر الحاضر ، لا بالقضايا المنطقية والفلسفة العقلية » كما نشر فى هذا العدد فصلا منه : وهو الفصل الأول من فصوله ، بعنوان « الإيمان والإنسان »؛ وكذلك فعل فى العدد الثالث : فقد اعلن فيه مرة اخرى عن الكتاب، بعد ان حور قليلا فى عنوانه ، واثبت فهرست موضوعاته، كما نشر فيه قطعة من مقدمته .

فإذا كان العدد الرابع الصادر فى أواخر اغسطس (سنة ١٩٠٠) :

فقد اعلن عن الشروع فى طبعه ؛وكان ذلك ـ فيما يبدو ـ بعد أن اجتمع له عدد من المشتركين تغطى اشتراكاتهم نفقات طبعه ، او جزءا كبيراً منها ، حتى لا يتعرض لمثل الخسائر التى يتعرض لها فى مجلة الحياة .

وصدر الكتاب فى سنة ١٩٠١ بعنوان : « الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية » وقد عالج فيه موضوع وجود الله ، أو ما يسميه فى المقدمة بالمسألة اللاهوتية ، معالجة فلسفة تاريخية ، عرض فى خلالها الآراء والمذاهب المختلفة فى الإيمان بالله ، مقررا فى الفصل الأول من فصول الكتاب أن الإيمان بوجود الله أمر ذاتى بالقياس إلى الإنسان ، لا يحيد عنه . فهو موجود فى قرارة نفسه ، وفى صميم تكوينه . كما انتهى فى هذا الفصل إلى النتائج الاتية :

« أولا : لا ملحد فى النوع الإنسانى على الحقيقة ونفس الأمر ، وأن غاية المسأله هى تجاوز فى الألفاظ ، وتناقش فى التعبيرات .

ثانياً : أن العلم هو الباعث الأول للاعتقاد والأيمان ، وأكبر سائق إليه ، وأن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد يقينا .

ثالثاً : أن الغاية التى وصل إليها النوع الإنسانى من الإيمان هى ماقرره الإسلام من عقيدة التوحيد والتنزيه ، لأنها عين ما عليه الفطرة الإنسانية .

رابعاً : أن الشبه والشكوك ما تولدت ولا تتولد إلا من حيدان الإنسان عن دينه الفطرى ، وهو الإسلام .

خامساً : أن زمان الإلحاد أو (سوء التفاهم) قد انصرم وإنقضى » .

وما إن انتهى من ذلك حتى إنتقل إلى « الإيمان خلال القرون » ، وقد قسم الأدوار التى مر بها الإيمان إلى أربعة أدوار : دور الفطرة

الأولى، ودور الفلسفة أو الحكمة ، ودور العلم الطبيعى والفلسفة الحسية، ثم أخيراً دور الفطرة ، مرة أخرى .

وقد عقد لكل دور من هذه الأدوار فصلا خاصا به ، شرح فيه أمر الإيمان بالله فيه . وكان طبيعيا أن يقف عند دور العلم وقفة طويلة فلم يكتف بالفصل الذى عقده عن الإيمان وما تعرض له فيه ، وإنما أعقبه بفصول ثلاثة تتصل به ، وتحقق أغراض المؤلف ، وأول هذه الفصول عقده للكلام عن « شبه الملاحدة من الماديين ووجه فسادها » كما جعل عنوان الفصل الثانى منها : « الإلحاد أمام العلم » ، أما الثالث فعنوانه : « المادة وما وراء المادة . لا إلحاد بعد اليوم » .

فإذا فرغ من هذه الفصول المتعلقة بالدور الثالث أخذ فى الكلام عن الدور الرابع ، فعقد له فصلا جعل عنوانه : « رجوع الإنسان إلى دور الفطرة الأولى ، الإسلام : دين الفطرة » .

وبهذا الفصل ينتهى الكتاب .

- ٨ -

في الوقت الذى كان محمد فريد وجدى مشغولا فيه بإعداد كتاب « الحديقة الفكرية » ، والتهيؤ لإصداره ، أواخر سنة ١٩٠٠ ، تجددت الحركة التى كانت قد ثارت منذ عام مضى ، بظهور كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » مقررا مساواة المرأة بالرجل ، وداعيا إلى رفع الحجاب الذى ضرب عليها ، ومشاركتها الرجل فى الأعمال التى يمارسها وينفرد بها ، « فأقامت هذه الدعوة الجديدة الرأى العام وأقعدته ، واستفزته استفزازا لم يعهد فيه، حتى ولا فى المسائل السياسية الكبرى » ، كما يقول محمد طلعت حرب فى مقدمة كتابه الذى أصدره فى ذلك الوقت، بعنوان « فصل الخطاب فى المرأة والحجاب »[1] . واشتد دوى هذه المسألة ، وترددت أصداؤها فى الجرائد والمجلات والمجالس ، فصولا تحرر ، وكتبا تؤلف ، وقصائد تنظم وتنشد ، واصطبغت صبغات مختلفة بين الدين والتقاليد والأخلاق ؛ فهذه الدعوة التى جاء هذا الكتاب بها هى ، حينا ، دعوة إلى الخروج على مبادىء الدين ، وحينا آخر دعوة إلى التحلل من حوافظ الشخصية المصرية أو الإسلامية ، فى وقت تترادف فيه المعاول الاستعمارية لتقويضها ، ومرة ثالثة تعريض الأخلاق لعامل جديد من العوامل التى أخذت تداخلها وتعمل على إفسادها وتحليلها .

وكان يقابل بعض ما فى هذه الأصداء من غلو، غلو فى الطرف الآخر الذى كان يمثله قلة من أنصار هذه الدعوة ، كان يرى فى قاسم أمين شخصية

---

(١) هذا هو عنوان كتابه الذى أصدره سنة ١٩٠١ ، ردا على كتاب المرأة الجديدة وهو ثانى كتابين له فى هذا الموضوع . أما كتابه الأول فأصدره قبل ذلك بعامين، سنة ١٨٩٩، ردا على كتاب قاسم أمين الأول : تحرير المرأة ، وجعل اسمه : تربية المرأة والحجاب .

جديرة بأن تسمى « لوثر الشرق » ، كما كان يجعله نظيرا لجمال الدين الأفغاني لجمال الدين محرر الرجل ، وقاسم أمين محرر المرأة ، إلى غير ذلك .

وأبعدت هذه الأصداء التي أثارها كتاب « تحرير المرأة » ، فتجاوزت مصر إلى العالم الإسلامي ، العربي وغير العربي ، وظهرت في بعض الرسائل التي كانت تصدر عنه ، وبعض الكتب التي ألفت انفعالا بها ومشاركة لها ، كذلك الكتاب الذي كتبه أحد علماء الشام ، مختار بن أحمد مؤيد باشا العظمي وسماه : « فصل الخطاب ، أو تفليس إبليس من تحرير المرأة ورفع الحجاب ». وقد كتبه في نفس العام الذي صدر فيه كتاب تحرير المرأة ، وطبع في بيروت ، سنة ١٣١٨ .

وكان محمد فريد وجدي قد شارك في هذه الحركة التي أثارها كتاب قاسم أمين الأول : تحرير المرأة ، بمقالات نشرها في جريدة المؤيد . كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما حكى هو ذلك عن نفسه [1] . وإن كنا لم نوفق بعد للوقوف على هذه المقالات . وحين تجددت هذه الحركة التي لم تكن سكنت بعد ، بظهور كتاب قاسم أمين الثاني « المرأة الجديدة » بعثه ذلك إلى خوض الميدان مرة أخرى واستئناف ما بدأه بمقالات المؤيد في العام الماضي .

وأكبر الظن أنه كان قد أتيح له في هذه الفترة ، بما نعرف عنه من تطلع دائم إلى المعرفة ، ونهم في القراءة والمراجعة ، وحرص على تعقب

---

(١) « ... واتفق أن المرحوم قاسم بك أمين نشر كتابا تحت عنوان (تحرير المرأة) ذهب فيه إلى وجوب خلع المرأة المسلمة للحجاب ، فانبريت للرد عليه في جريدة المؤيد ، ونال هذا الرد من جمهور القارئين إعجابا عظيما ، والممت في آخر الرد بطرف من أصول مدنية أوربا والمدنية الإسلامية وتمنيت لو يعود المسلمون إلى أصولها ليحيوا حياة طيبة ، ويستعيدوا بالعودة إليها مجدهم السابق » دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد الرابع ، ص ١٦٨ . الطبعة الثانية

المسائل فى أصولها ، أن يتعرف إلى « مسألة المرأة » فى فرنسا ، ويتبين أسبابها وملابساتها ومظاهرها ، ويقرأ أطرافا من الدراسات التى قامت حولها .

وإذا كانت هذه المسألة ترجع بأصولها ، فى فرنسا ، إلى الثورة الفرنسية ، (فى أواخر القرن الثامن عشر) ، وميثاق حقوق الإنسان الذى صدر عنها ، والقوانين التى جاءت بها ، فانها لم تتخذ فى المجتمع الفرنسى صورة بارزة غيرت وجهه وأثارت كثيراً من الجدل فيه : إلا بالانقلاب الصناعى ، وما نشأ عنه من تحول اجتماعى كبير ، وظروف اقتصادية خاصة ، كان مما قضت به ضروراتها أن تشارك المرأة ـ بصورة ما ـ فى النشاط الصناعى وغيره من وجوه النشاط الاقتصادى . وكان هذا فى حقيقة الأمر انقلابا كبيراً فى حياتها ، أثار كثيرا من الملاحظات ، وبعث كثيرا من الدراسات . وكان من هذه الدراسات ما ينكر هذه المشاركة التى اندفعت المرأة — أو دفعت — إليها، وعانت الكثير فيها ، كما فقدت فيها غير قليل من خصائصها .

وهذه الدراسات هى التى وقع عليها محمد فريد وجدى ، وهو يدرس هذه المسألة ، ويتهيأ لمناقشة كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين ، ومن ذلك الفصل الذى كتبه جيوم فريرو[1] فى مجلة المجلات الفرنسية وهى ـ فيما يبدو ـ من اول ينابيع ثقافته ، وقد قال فيه : « إنه يوجد فى أوربا كثير من النساء اللواتى يتعاطين أشغال الرجال ، ويلتجئن بذلك إلى ترك الزواج بالمرة ، وهؤلاء يصح تسميتهن بالجنس الثالث ، أى أنهن لسن برجال ولا نساء ، لمنافاتهن للأول طبيعة وتركيباً ، وللأخريات وظائف وأعمالا ؛ وإنهن بمعيشتهن فى تلك الحياة المصطنعة وانتزاعهن

---

(١) Guillaume Ferrero

أنفسهن من وظائفهن الطبيعية التى خلقن لها جسما وروحا ، قد تغيرت إحساساتهن عن إحساسات بنـــات جنسهن ، وصرن فى حالة تشبه الماليخوليا ، فكأن الفطرة البشرية تقيم عليهن الحجة بلسانها الفعلى على إغفالهن حقوقها » . كما قال فى هذا الفصل أيضا : « وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافى للسنن الطبيعية . فإن هاته النسوة بمزاحمتهن الرجال صار بعضهن عالة على الجمعية ، لا يجدن ما يشتغلن به ، ولو تمادى الحال على هذا المنوال لنشأ منه خلل اجتماعى عظيم الشأن » .

وفى هذه المجلة الأثيرة عنده يقرأ لجول سيمون - صاحبه عندما كان يكتب كتابه : تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية، ومتحدثا عن الديانة الطبيعية - كلاما عن المرأة يقول فيه : « المرأة التى تشتغل خارج بيتها تؤدى عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدى عمل امرأة » . أو يقول : « صار النساء الآن نساجات وطباعات وقد استخدمتهن الحكومة فى معاملها ، وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ، ولكنهن — فى مقابل ذلك — قد قوضن دعائم أسرهن تقويضاً » ، أو ما يقوله فى فصل آخر كتبه فى هذه المجلة عن كتاب للعلامة لوجوفيه تعليقاً على قوله : يجب على المرأة أن تبقى امرأة — : « نعم يجب أن المرأة تبقى مرأة ، فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها ، وأن تهبها لسواها . فلتصلح حال النساء ، ولكن لا تغيرها ، ولنحذر من قلبهن رجالا لأنهن بذلك يفقدن خيراً كثيراً ، ونفقد نحن كل شىء ، فإن الطبيعة قد أتقنت كل ما صنعته فلندرسها ، ولنسع فى تحسينها ولنحسن كل ما يبعد عن قوانينها وأمثلتها ... يقول بعض الفلاسفة : إن الحياة محفوفة بالمكاره . ولكنهم ربما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا طعم الحب طول عمرهم . أما أنا فأقول : إن الحياة

طيبة هنيئة ، ولكن بشرط أن يعلم كل من الرجل والمرأة المكان الذى خصصه الله تعالى لكل منهما .

إلى كثير من مثل هذه الآراء والأقوال لأوجست كونت وبرودون وفورييه ، ممن شهدوا هذا التحول الكبير فى وضع المرأة وحالتها ، فهم يأسون لها ويشفقون مما صارت إليه فى صراع الحياة ، كما يشفقون من النتائج المترتبة على ذلك فى الأسرة وفى المجتمع عامة .

فهذا أحد وجوه المسألة النسائية فى الغرب كما مثلتها لمحمد فريد وجدى قراءاته . وعنده أن المرأة هنالك إنما صارت إلى هذا المصير بحكم الضرورات الاقتصادية التى سيطرت على المجتمع الأوربى . وإذ ليس فى حياتنا — إذ ذاك — مثل هذه الضرورات ، فإن الدعوة إلى مشاركة المرأة الرجل فى اعماله ، وما يقتضيه ذلك من رفع الحجاب ، دعوة قائمة على التقليد ، صادرة عن هذه النزعة .

وبذلك أخذ فى وضع كتابه هذا الذى أخرجه فى العام التالى لظهور كتاب قاسم أمين ، سنة ١٩٠١ ، وسماه : « المرأة المسلمة » وكأنما أراد أن يعارض بهذه التسمية تسمية قاسم أمين كتابه « المرأة الجديدة » .

وإذ كانت مسألة المرأة بالصورة التى عرضها قاسم أمين قد نشأت فى مصر نشأة غير طبيعية ، إذ نشأت عن نزعة التقليد لأوروبا ، فقد عالج فى مقدمة كتابه قضية التقليد بين الأمم ، من وجهة نظره ، فقال :

« إننا رأينا بعد طول البحث والتدقيق واستقراء مجريات الأحداث التاريخية أنه يجب أن يوجد بين الأمة المقلدة ، والأمة المقلدة تناسب فى حافظيتهما الرئيسيتين ، ليكون ذلك التناسب كافلا أميناً لعدم تغلب أقواهما على أضعفهما وتحليل عناصرها ، لأنى لا أعرف التقليد فى عرف العمران إلا استعداد الأمم الضعيفة لقبول مؤثرات الأمم القوية ، والاستسلام

للتحرك بحركتها . ولا يمكن أن تؤثر تلك المؤثرات عليها ، أو تعمل تلك الحركة فيها عملها المطلوب إلا بإماتتها كل مقاومة تقف فى سبيلها وحينئذ تعدو الأمة القوية على الضعيفة فتحللها تحليلا ، وتمثل عناصرها بجسمها تمثيلا ، بخلاف ما لو كان بين الحافظتين الرئيسيتين تناسب ، فإنه لا يوجد بينهما تنازع ما ، فتقبل إحداهما ما تقبله من الأخرى بدون خطر على كيانها . والناظر فى أحوالنا بنظر العمرانى المدقق يجد حافظة أمتنا الرئيسية لا تشابه من كل وجه حافظة أية أمة من الأمم التى يراد أن تحتذى مثالها ، فى شؤوننا الحيوية ، فتكون النصيحة بالتقليد ، على ما قدمنا نصيحة بالاستخذاء للتلاشى ».

ثم يقول ، بعد أن يضرب المثل بشعوب الأمة الأمريكية : « كلامى هنا خاص بالتقليد فى الشئون الحيوية . أما الامور الصناعية فإنها لا تتأتى إلا به ، ولا عار على أمة من ذلك ، كما لا خوف على كيانها من الفساد بسببه » .

ولكن مسألة المرأة — مع ذلك — عندنا هى فيما يرى من الخطر بحيث يخلق أن تسمى مسألة المسائل كلها ، لما بينها وبين سائر أصولنا الجوهرية من العلاقة الأكيدة ؛ كما هو نص عبارته ، مما يجب معه أن يتكاتف محبو الترقى على تمحيص حقائقها .

ويختم هذه المقدمة بقوله مشيراً إلى غايته ، دالا على شىء من منهجه :

« بناء على هذا ، وعلى تعطش الأمة اليوم لمعرفة خير سبيل لتهذيب بناتها تهذيباً ملائماً لتركيبها ، رأينا أن نتكلم على حقيقة المرأة ووظيفتها ومواهبها وطريق كمالها ، مستندين على مقررات العلوم الصحيحة المجمع عليها ، وأن نثبت للناس عموماً ، بالتحليل العمرانى الدقيق ، أن الحجاب

ضرورى لها ، ليس لعدم الثقة بها ، ولكن لكونه الضمان الوحيد لاستقلالها وحريتها بشهادة التاريخ ومجريات الحوادث الاجتماعية فى العالم وأن نرد على كل شبهة قامت فى سبيل هذه المدركات العلمية أو وجهت إلى مبنى المدنية الإسلامية . وقد برهنا أن هذه المدنية هى الشكل الوحيد من كمال الاجتماع البشرى الذى يتقرب منه البشر يوما بعد يوم وأقمنا بالأدلة من تحقيقات عمرانيي الأمم أنه لا توجد أمة فى هذا العصر يجوز اتخاذ نظامها فى تربية البنات منولا ننسج عليه ، واستخرجنا من كل هذا المجموع ما يجب أن تكون عليه المرأة فى الأمة المتمدنة فتجلت لنا المرأة المسلمة مثال الكمال النسائى ونموذج الرقى الجنسى . بشهادة الطبيعة والتاريخ .

والأصل الذى بنى عليه دراسته للمرأة ، وأقام عليه رأيه فيما يعالجه من مسائلها هو ما يراه من الوظيفة التى تختص بها المرأة فى الحياة ، «وهى حفظ النوع البشرى واستدامته بما لا يتأتى للرجل أن يشاركها فيه لأنه يتعلق بشكل التركيب الجسمى الذى لا يمكن التحصل عليه بالتصنع ولا بالتقليد »،وهذه الوظيفة التى يصفها بانها«وظيفة سامية للغاية» تتمثل فى مراحلها الأربعة المتعاقبة، من الحمل والوضع والرضاع والتربية ، وهذه المرحلة الأخيرة هى — كما يقول — من أقدس الوظائف وأدعاها للعناية والاهتمام . إذ «أن فن التربية ليس من الفنون البسيطة التى تتعلم فى شهر أو شهرين . بل تقتضى سنين طويلة لأنها تتناول العلوم النفسية ، وكيفية تربية الملكات ومعالجتها بالطرق الحكيمة[1] » .

وعن هذه الوظيفة الطبيعية الخاصة بالمرأة كان اختلافها عنه عضوياً ومعنوياً . وهذا الاختلاف جعلها — فى مجموعها — أقل منه قوة

---

(١) المرأة المسلمة ص ٣٧ – ٤٤ ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩١٢ .

جسمية وأدنى منه كفاية عقلية . فشاركتها له فى أعماله أمر غير طبيعى إذ كان ذلك تجاوزاً لما أهلتها له طبيعتها ، وهو تجاوز تدفع ثمنه فادحا بما تتعرض له من مشاق هائلة ، بما هو أدنى إلى العبودية لا إلى التحرر؛ كما يؤدى — من ناحية أخرى — إلى انهيار النظام العائلى ، على النحو الذى حدث فى فرنسا ، وكان موضع شكوى علماء الاجتماع فيها .

وهذه الوظيفة التى خالفت بينها وبين الرجل تجعل المساواة بينهما أمراً لا حقيقة له، إذ لا توجد المساواة إلا مع تكافؤ القوة . وفوق هذا فإن الخالق لم يخلق الرجل والمرأة إلا ليكونا شخصاً واحداً ، فالرجل فى حد ذاته له نواقص كثيرة لا تكملها إلا المرأة ، وفى المرأة نواقص لا يكملها إلا الرجل، بشرط أن هذه النواقص المتبادلة تتكامل من نفسها عند حدوث الاقتران مباشرة ، وتوحى طبيعة الحال لكلا الزوجين الواجب الذى عليه للآخر . إذا تقرر هذا ، فكثرة الكلام فى تحديد وجه المساواة بين شيئين كل منهما محتاج للآخر ليس له معنى البته، والبحث عن استقلال كل منهما عن الآخر شىء لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه مطلقاً ، كيف يحسن بنا أن نعطى الاستقلال لشيئين خلقا ليكونا شيئاً واحداً؟ وكيف نحدد وجه المساواة بينهما وكل واحد منهما محتاج للآخر ، ولا يتم كماله إلا به ؟ غاية ما أفهمه أن مثل الساعين فى ذلك كمثل الساعى فى إيجاد الاستقلال بين العنصرين المكونين للماء : الأوكسجين والإيدروجين ، فإذا كان من الممكن أن يكون كل من هذين العنصرين مستقلا عن الآخر مع تكوينهما الماء ، كذلك يمكن ان يكون كل من الرجل والمرأة مستقلين مع تكوينهما الأسرة[1] » .

---

(١) المرأة المسلمة ، ص ١١٣ — ١١٤ .

هذا هو الأصل الذى بنى عليه محمد فريد وجدى دراسته للمرأة ، وعن هذا الأصل كان رأيه فى وجوب « أن نعمل كل ما يمكننا لتقرب المرأة من كمالها ، وتدخل فى حدود وظيفتها ، وأن نعتبر أن كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التألب على ملاشاته ، أو بذل الجهد فى حصره فى محله » ، كما كان رأيه فى حجابها وأسلوب تعليمها . وعلى هذا الأصل أدار فصول كتابه الثلاثة عشرة التى يتألف منها .

وقد ذيل هذه الفصول بخاتمة لخص فيها جملة آرائه ونظرياته التى بسطها فيها فى تسع فقرات .

ويبدو أن محمد فريد وجدى ، حين أخذ فى رسم خطة كتابه : « المرأة المسلمة » ووضع منهجه، أراد أن يجعله فى جزئين : أحدهما خاص بقضية المرأة فى صميمها ، ويتحدث فى الآخر عما كان يلابس هذه القضية من حديث المدنية الإسلامية ، كما كان صنيعه فى مقالات المؤيد التى رد بها على كتاب تحرير المرأة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل فيما أوردنا من حديثه عن هذه المقالات ، وهو يشير فى هذ الحديث إلى أن قاسم أمين أتى على ماقاله فى المدنية الإسلامية بين أقواس ورد عليه ردا صغرفيه من شأن هذه المدنية ، فكأنما كان يريد أن يكون كتابه فى الرد على قاسم أمين فى شأن المرأة متضمنا رده عليه فى شأن المدنية الإسلامية . وقد قال فى الفقرة التى أوردناها قبل من المقدمة ، فى بيان موضوع الكتاب ومنهجه : « . . . وأن نرد على كل شبهة قامت فى سبيل هذه المدركات العلمية ، أو وجهت إلى مبنى المدنية الإسلامية ، وقد برهنا على أن هذه المدنية هى الشكل الوحيد من كمال الاجتماع البشرى الذى يتقرب إليه البشر يوماً بعد يوم » .

كما نجده يقول ، بعد ذلك ، فى الفصل الخامس ، فى سياق الحديث عن مشاركة النساء للرجال فى الأعمال : « ألا يجب علينا بعد هـــذه الاعتبارات ، أن نتكاتف على عدم تغيير نظام الشريعة الإسلامية التى هى (وسنرى هذا حسيا عمليا فى كتاب المدنية ، إن شاء الله) ترجمة نظام الفطرة الإنسانية ، ولسان القوانين الطبيعية »[1] . فهو إنما يعنى بذلك الجزء الثانى الذى كان عليه أن يصدره بعد هذا الجزء ، كما نرى ذلك فى « التنبيه » الذى أثبته فى نهاية الكتاب ، بعد الخاتمة ، فى طبعته الأولى ، إذ يقول :

« إننا لم نر بدأ من تقسيم مؤلفنا هذا إلى جزئين : جزء رددنا فيه على كل الشبه التى وردت على الحجاب وغيره من تقاليد المرأة المسلمة . وجزء آخر خصصناه لرد كل الاعتراضات التى وجهت ضد المدنية الإسلامية . والسبب الذى دعانا إلى بسط القول فى المدنية هو أن بعض الكتاب أساء فهم قولنا إنها كانت نموذج الكمال البشرى فظن أننا نعنى بالكمال البشرى ما يوازى اختراع مدافع المكسيم وبوم بوم وبنادق دم دم وقنابل الديناميت والليديت ،وغيرذلك من آثار الصناعة والزخرف لذلك رأينا أن نتكلم عن ماهية الكمال البشرى ، وماهية الغرض الذى خلق له الإنسان ، وماهية المدنية الفاضلة التى توصله إلى ذلك الكمال. ثم درسنا أنواع المدنيات المختلفة فلم نجد منها ما يوصل الإنسان إلى سعادته الجثمانية والروحانية إلا الديانة الإسلامية بالحس ، وبشهادة كل معلومات البشر .

على أن هؤلاء الكتاب كانوا يكفوننا مؤونة الرد عليهم من هذه الوجهة البديهية لو كان اطلعوا على ما كتبناه فى ١٨ جزءاً من الحياة ، وما كتبناه فى كتابنا : (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية)

---

(١) المرأة المسلمة ، ص ٩٣ ، الطبعة الثانية .

وفى مؤلفنا (الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية) ، فإنهم لو اطلعوا على كل هذا لعلموا أننا قد دافعنا عن حقيقتنا بالعلم والحس وأننا لا نجهل ناموس الترقى ، بل إننا أول من بسط الكلام فيه ، وطبقه على آيات القرآن الشريف »

ولكن يبدو أنه عدل عن إصدار هذا الجزء من الكتاب ، اكتفاء بما قدم ، أو إرجاء إلى معالجة هذا الموضوع فى كتاب آخر ، يكون به أخص ، كما سنرى بعد .

ومن أجل ذلك حذف هذا « التنبيه » من الطبعة الثانية التى صدرت سنة ١٩١٢ .

كان التفكير فى المدنية الإسلامية، والمسائل المتعلقة بها، والممهدة للكلام فيها ، مثل « ماهية الكمال البشرى ، وماهية الغرض الذى خلق له الإنسان، وماهية المدنية الفاضلة التى توصله إلى ذلك الكمال ، وأنواع المدنيات المختلفة » ، وهى الموضوعات التى ذكرها فى ذلك « التنبيه » الذى أوردنا نصه فى الفصل السابق ، مسيطراً على فكر محمد فريد وجدى ، وهو يضع كتابه « المرأة المسلمة » على النحو الذى لاحظناه ، ونحن نقرر ماكان يراوده إذ ذاك من تخصيص جزء لهذه الموضوعات يجعله متمماً للكتاب .

ولكن يبدو أنه لم يكد يفرغ من إصداره ، وقد ذيله بذلك « التنبيه » إلى الجزء الثانى ، مشيراً إلى تلك الموضوعات التى كان ينوى أن يعالجها فيه ، حتى بدا له أن يعدل عن هذا ، لتأخذ هذه الموضوعات مكانها فى كتاب ضخم رأى طموحه العلمى أن « يضمنه موجز أبحاثه فى المواضيع الفلسفية التى لها علاقة بالإسلام خصوصاً ، وبالدين المطلق عموماً » ، وكان يقصد به - كما يقول - إلى « اقامة صرح مشيد للدين الإسلامى فى هذا العصر الذى اشتهر بزعزعة أركان الأديان وهدم صروحها ، وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها » [1].

وهكذا أخذ يخطط لهذا المشروع ، ويدبر الوسيلة لإخراجه .

وقد رأى - بادىء بدء - أن يكون الكتاب فى أربعة أجزاء ، يخص الجزء الأول بالكلام عن الإسلام، والثانى بالكلام عن المدنية ، ثم يجعل الثالث للكلام على وراء المادة ، ويختم الكتاب بالجزء الخاص بالحديث عن « سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) من مقدمة كتاب : « الإسلام فى عصر العلم » .

ولا ريب أن المشروع بهذه الصورة وتفصيلاتها التى تمثلت فى ذهنه ضخم ضخامة تنوء بها قدرته على تمويله . ولعله - فيما قد يبدو لنا - لم يكن بحكم طبيعته وشبابه المتوقد ، يستطيع الصبر على حبس نفسه على هذه الدراسات المتشعبة ، وما تحتاجه من وقت متطاول ، ليخرجه مرة واحدة وبذلك رأى أن يخرجه منجما ، فى كراسات تصدر شهريا ، يبعث بها إلى المشتركين فيه .

وبدأ بطبع المقدمة وإخراجها على حدة فى سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢م) وقد نص فيها على أن الكتاب يتألف من الأجزاء التى ذكرناها . ولكنه لم يلبث بعد ظهور المقدمة ، ومواجهة موضوعات الكتاب ، أن عدل عن هذا التقسيم إلى تقسيم آخر ، فجعل الكتاب من ثلاثة أجزاء لا أربعة وسمى الجزء الأول : « مبحث الإنسان » والثانى : «خاتم النبيين» والثالث: «ماوراء المادة » . ثم ألحق بهذه الأجزاء الثلاثة جزءا رابعاً لا يعالج فيه موضوعا معينا وإنما هو مجموعة ملاحق تصدر شهرياً ويتضمن كل ملحق الإجابة على مايوجهه القراء من اسئلة أو استيضاحات أو مناقشة مارد عليه من اعتراضات ، أو ما إلى ذلك. وقد قدم لهذا الجزء بقوله :

« .. فإنا وإن كنا آلينا على أنفسنا أن نجعل كتابنا (الإسلام فى عصر العلم) سهل العبارة قريب المأخذ ، من جهة القالب العربى ، والأسلوب الكتابى ، ومن جهة البعد عن مصطلحات الفلسفة العويصة ، والهجر لتراكيبها الحرجة ، ما أمكن ، إلا أننا رأينا أن كل ذلك لن يقف بالأذهان الطالبة للاستفادة ، ولن يقعدها شىء عن ابتغاء الزيادة ، فعولنا على أن نجعل للكتاب ملحقاً يصدر ، إن شاء الله تعالى ، معه كل شهر فى ست عشرة صحيفة ، يكون موضوعه شرحا لما يغمض من المدركات الفلسفية التى تأتى فى الكتاب وإيضاحا لما يستبهم على القراء فى بعض ابحاثه ، فى المواضيع الجديدة التى لم يعتد على سماعها أصحاب اللسان العربى . ولكنا لن

نشرح إلا مانسأل عنه . فعلى كل من يود استيضاح مبهم ، أو استيفاء معجم ، أن يكتب لنا سؤاله ويرسله ، قبل انتصاف الشهر ليجد الجواب إن شاء الله ، فى الشهر اللاحق .

بهذه الطريقة المبتكرة نرجو أن يكون قارئنا على بينة تامة من كل مايطالعه من كتاباتنا ، أولا فأولا . وإننا هنا نعد قراءنا بأننا لم نزل على عهدنا من مقابلة كل سؤال بصدر رحب ، وذرع واسع ، غير متبرمين بتشدد سائلنا ، ولا مزدرين بمن يعترض علينا . وقصدنا من ذلك أداء خدمة للملة نرجو أن تكون خالصة لوجهه الكريم ، وأن تطهر من كل مايحيطها من همزات الشياطين . والله الموفق والمعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على إمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين » .

وإنما أوردنا هذه المقدمة برمتها ، لا لأنها تبين لنا هذا الأسلوب الذى اصطنعه محمد فريد وجدى فى تأليف هذا الكتاب وإخراجه ، ولا لأنها تؤدى لنا صورة نفسية وعقلية له ، وهو يفكر فيه ، فحسب ، بل لدلالتها — فوق ذلك — على النزعة التعليمية عنده ، وهى نزعة ظهرت فى غير صورة فى حياته ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، إن شاء الله .

وهكذا أخذ الكتاب يخرج على الناس فى أجزاء شهرية صغيرة ، يتألف كل جزء منها من ثلاث كراسات من صلب الكتاب ، من كل مبحث من مباحثه كراسة ، إلى جانب كراسة الملحق وقد رقمت كل منها بحيث تضم كل واحدة منها إلى نظيرتها حتى يأخذ الكتاب ، بعد تمامه ، صورته الطبيعية الكاملة كما لو كان قد طبع مرة واحدة .

ولا ندرى كم من الزمن استغرق محمد فريد وجدى فى إخراج الكتاب بتمامه إذ يبدو أنه لم يلبث أن تعرض لصعوبات الطباعة وما إليها ، وخاصة

إذ كان يكتب في السويس ويطبع في القاهرة ، فلم يكن يصدره بصورة منتظمة كما كان مقدرا . كما نرى ذلك فيما تتضمنه بعض الملاحق من اعتذار عن تأخر صدور هذه المباحث الشهرية عن مواعيدها ، كقوله في الملحق الثامن : « كل ماتكبده قراؤنا من تأخير مباحثنا الشهرية عنهم كان سببه أهمال القائمين بطبعه . وأما الآن فقد أخذنا الحيطة لإصداره في أوائل كل شهر عربي ، إن شاء الله . وعليه فسيصدر الجزء التاسع في أوائل رمضان ، وسيكون أول سنته الثانية في أول سنة ١٣٢٢ ، إن شاء الله تعالى » أي أنه حتى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٣ لم يكن صدر من الكتاب غير ثمانية أقساط ، وأن سنته الثانية لم تكن بدأت حتى شهر مارس سنة ١٩٠٤ .

ومهما يكن تاريخ الانتهاء من طبعة فقد تم أخيراً وظهر في مجلدين يتألفان من ألف وأربعمائة صفحة ، يضمان مباحثه الثلاثة وملاحقها على التصنيف الذي عدل إليه .

ويبدو أنه رأى الكلام عن المدنية يندرج في الكلام عن الإنسان ، إذ كان لا يعني بالمدنية مظاهرها المادية ، ولكنه يعني الكمال الإنساني عامة وهو موضوع مبحث الإنسان ، فاكتفى بهذا المبحث عن مبحث المدنية الذي كان في خطته أولا .

وقد عالج في هذا المبحث تاريخ الإنسان العقلي والديني ، فتكلم عن مرحلة النزوع الديني قبل ظهور العلم ، ثم ماتلا ذلك من يقظة العقل ، ونشأة العلم كما تحدث عن الأدوار التي مرت بها الإنسانية منذ عهد اليونان وماعرض لهم من الصراع بينهم وبين الفرس وظهور الفلاسفة اليونانيين منذ فيثاغورس ، ومبلغ معالجتهم لما يسميه بالمسألة اللاهوتية ، إلى غير ذلك من المباحث التي كان هدفه منها ، إلى جانب المعرفة في ذاتها ، تحليل

الروح المسيطرة على الجيل الحاضر، كما يبدو ذلك فى قوله فى أحد ملاحق هذا الكتاب:

« إنا وصلنا بالقارىء بواسطة التحليلات الفلسفية التى عملناها فى مبحث الإنسان إلى لباب نظريتنا التى وقفنا قلمنا ومحاولاتنا لبلوغ الغاية من تجليتها، والإشراف منها على أدوائنا الإجتماعية والذاتية، واستنزال روح علاجاتنا من قبلها، إن شاء الله تعالى.

تلك النظرية هى أن لكل جيل روحا عمومية، تنبعث من أقوى أمة أو من أقوى الأمم فى الجيل، فتحتف بسائر الأمم الأخرى وتصاولها من جهات ضعفها، حتى تستولى على ارادتها، وتتسلط على اختيارها، وتديرها فى تيار حركتها، لتجعلها لا تعيش إلا لها، ولا تتحرك إلا بها، ولا تستمد الحياة إلا منها، ولا تسكن ولا تضطرب إلا فى حبالها. وقلنا إن الروح السائدة اليوم على آفاق العالم أوربية مختلطة، أحاطت بالأمم الضعيفة إحاطة السوار بالمعصم، وجرت على سنة كل الأرواح العمومية السابقة. ثم فسرنا بهذه النظرية سائر مانحس به من التناقض فى أحوالنا والارتباك فى شؤوننا، وقلنا إن الدواء مما نحن فيه لا يمكن تركيبه وتحضيره إلا بعد درس مصدر هذه الروح العمومية درساً علمياً، والوقوف التام على العوامل التى كونتها وأمدتها، وعلى جهات الضعف فينا التى واجهتنا منها، فأحدثت فيها هذه الآثار المحزنة، ثم يضاف إلى هذا الدرس البحث الدقيق عن حقيقة هذه الروح، وعن جهات قوتها وضعفها، وعن عوامل حياتها وموتها، وعن المسارب التى تسربت منها إلى أفكار البشر وعقائدهم فقلبت شكل الأرض من حال إلى حال آخر.

هذا البحث والدرس سيكون طبعا بتشريح حالة الأمم قبل حدوثها من جهة الأفكار والعقائد والأحوال السياسية والعلمية والاجتماعية ومن جهة الأخلاق والآداب فى أوربا محل نشوء هذه الروح العمومية

وبيان الرجال الذين ظهرت بهم هذه الروح وتسربت من تعاليمهم تدريجا تدريجا . وسيكون هذا البيان ، إن شاء الله ، بسرد حالة الأفكار فى العصر الذى وجدوا فيه ، وما أفادوه للناس من الروح الجديدة ، وتوضيح جهات القوة والضعف من تعاليمهم ، ومجرى تلك التعاليم من عقول معاصريهم ثم بيان كيفية انضمام تعاليم السابق إلى اللاحق منهم :

وهكذا حتى نشرف بالقارىء على كيفية تكون تلك الروح الأوربية السائدة اليوم : وعلى حالتها من جميع جهاتها الدينية والفلسفية والعلمية والخلقية : وعلى مراكز قوتها وضعفها : من كل جهة من تلك الجهات : وعلى سر تسلطها على المسلمين من تلك الجهات المذكورة » .

وإذن فقد كان محمد فريد وجدى يتجه ، فى دراساته هذه ، وفى جولاته الفكرية فى مراكز النشاط العقلى والدينى ، إلى الأمة الإسلامية الحاضرة ، وما يسيطر عليها من « روح الجيل العمومية » فهو يحاول — وليس بنا الآن أن نعرف مبلغ توفيقه فى هذه المحاولة — أن يحلل هذه الروح تحليلا علمياً ويردها إلى أصولها البعيدة والقريبة . ومن ذلك كانت جولته بين الأطوار المختلفة للحياة العلمية وتعرفه لألوانها المختلفة . وينتهى فى حماسة الشباب وتوثبه الذهنى والوجدانى إلى أن « الروح الأوربية سينتهى بها الأمر إلى مقابلة الروح الإسلامية فى أفقها ، وترك السلطان لها » .

هذا هو المبحث الأول من مباحث الإسلام فى عصر العلم .

وأما المبحث الثانى ، وهو مبحث خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فإنما يعرض للأصول الإسلامية التى تعتبر من المعجزات العلمية للمصلح الأكبر ، صلى الله عليه وسلم ، « وبهذه الصفة ستكون السيرة المحمدية على أسلوب جديد حاصلة على الروح المطلوبة منها ، بمعنى أنها لن تكون تاريخية محضة ، بل مرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فى إصلاح العالم وأثرها فيه اليوم ، ومستقبل السلطان العظيم الذى سيكون لها بعد حين » ، كما هو نص عبارته عن هذا المبحث .

وأما المبحث الثالث فهو استمرار لما جعل يعرضه من ابحاث الروحيين وتجاربهم منذ العدد الأول من مجلة الحياة ، مؤمناً أنه بذلك يحقق وجهاً من وجوه التوفيق بين العلم والدين ، وهو الأصل الذى أراد أن يبنى عليه هذا الكتاب .

وبعد فإن كتاب الإسلام فى عصر العلم يمثل وجها من وجوه الطموح العلمى المتوثب عند محمد فريد وجدى ، فى شبابه الأول ، وصورة من صور حماسته الدينية المشبوبة المستبصرة فى هذه الفترة من حياته .

وكأنه كان يتمثل — وهو مقبل على تأليفه — صورة متكلمى الإسلام الذين اقتفوا أثر المعتزلة الأوائل الذين يصفهم الجاحظ بقوله: «والمعتزلة يريدون أن يعرفوا كل شيء ويأبى الله ذلك» ، والذين كانوا يلتمسون المعرفة من كل سبيل . وكانوا يتخذون من معارفهم الواسعة ومن ثقافات عصرهم . ومن دراساتهم المستقصية . أداة يؤيدون بها مذهبهم ، ويدفعون بها أعداء الدين ويجادلون بها خصومهم .

نرى ذلك واضحا فى مثل قوله ، فى مقدمة هذا الكتاب : «لم يسقط المسلمون إلى ماهم عليه الآن إلا بلويهم عن العلم كشحاً ، وضربهم عن الخوض فى مناحيه صفحاً . ألم تر أن فى كل دور من أدوار العلم كتباً للمسلمين اتخذت أرق مدركاته سلاحا للدفاع عن الإسلام وتأييده ، وجعلت أعضل مسائله آلة لتشييد صرحه وتوطيده » .

وقوله فى موضع آخر : « أكبر سبب لتراخى روابط الدين من

قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لا شك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آبائنا الأولين وسنتهم فى نشر الدين . وقوله بعد أن بسط القول فى أثر الشبه العلمية على قلوب المتعلمين . وعقولهم ،وفى صرفها لهم عن الدين والأخذ بتعاليمه ، وفى انحراف المتكلمين عن الجادة حين يسلكون فى الحديث عنه « مسلك القضايا المنطقية والفلسفة العقلية ...فى عصر الفلسفة الحسية والبراهين الطبيعية التحليلية » : « بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع فى هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الأولين الذين استخدموا علوم عصرهم للدين »

ولا ريب فى أن هذه الفترة الطويلة التى أمضاها محمد فريد وجدى فى تأليف هذا الكتاب ، بتقصى مادته ودرسها ودرس المسائل التى كانت تلقى عليه فى موضوعاته ، كانت كبيرة الأثر فى تكوين شخصيته العلمية وإنضاج ملكاته العقلية والأدبية بما جعل يطوف فيها بميادين المعرفة المختلفة التى كان يقتضيها موضوعه وما أخذ به نفسه فيها من الإحاطة بتاريخ الإنسان العقلى فى شتى أطواره ومختلف جهاته .

١٠

فى شهر شوال سنة ١٣٢١ ، أو فيما بين أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٣ وأوائل يناير سنة ١٩٠٤ بدأت تظهر إلى جانب كراسات « الإسلام فى عصر العلم » كراسة جديدة تحمل اسم «صفوة العرفان فى تفسير القرآن» وأخذت تظهر شهرياً معها .

وهذا الكتاب كان يتألف ، بعد تمام ظهوره ، من مقدمة طويلة تقع فى ١٨٠ صفحة كبيرة ، وقد طبعت على حدة ، ومن التفسير الموضوع على هامش المصحف ، والذى أخذ أخيراً حين أعيد طبعه ، اسم « المصحف المفسر » .

وقد تم ظهور المقدمة أولا ، وإن كنا لا ندرى متى كان ذلك ، فالتاريخ المثبت فى صدرها هو تاريخ البدء فى طبعها . إلا أننا نجد المؤلف يورد فى صفحة ١٤٠ منها فصلا من رسالته التى وضعها بالفرنسية «لمؤتمر الأديان الذى قيل إنه أنعقد باليابان سنة ١٩٠٦ » ، كما يقول ، فنعلم من ذلك أن ايراده هذا الفصل فى هذه المقدمة إنما كان بعد هذا العام ، وأن طبع هذه المقدمة قد استغرق أكثر من ثلاثة أعوام .

ثم نجد فى أواخر سنة ١٩٠٧ إعلانا عن التفسير ، مضمنا الإعلان عن المقدمة ، فذلك فيما نرجح هو تاريخ الانتهاء من هذا الكتاب .

أما المقدمة التى اتخذت صورة كتاب على حدة فقد قدم لها بالكلام عن الأمة العربية فى الجاهلية ، ليخلص من ذلك إلى بيان ماأتيح لها من نهضة بسبب القرآن ، الذى هو روحها وحياتها ، كما يقول . « به حييت وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهذبت وتخلقت ، وبه التأمت وأجتمعت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت وناقضت ، وبه بحثت

وتعلمت ، وبه دونت وألفت ، وبه هدمت وبنت » . وكما كان هذا شأن القرآن فى حياة الأمة العربية ، فقد كان اغفالها له واعراضها عنه هو سبب ارتكاسها . ثم يقول فى شرح هذا الإغفال ومأدى إليه :

« ومن أكبر الأسباب فى ذلك أننا لانفهم مراميه العالية . . . من جراء العجمة التى طرأت على لغتنا ، لاختلاطنا بالأمم جيلا بعد جيل ، وقبيلا بعد قبيل . . . وأضف إليه تساهل بعض العلماء فى قراءته بغير تدبر ، فجرى الناس على ذلك قرونا كثيرة ، لايحفلون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الأمر إلى مانرى اليوم ، يقرؤه الحافظ من أوله إلى آخره ، وهو لا يفهم منه سطراً واحداً ، بل قد لا يكلف نفسه فهم شىء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ ، أما العامة فأمرهم أشد وأمر . . . » .

وبعد أن فرغ من تصوير هذه الحالة التى صار إليها المسلمون فى العصور المتأخرة من القرآن ، بأسلوب تغلب عليه الروح الخطابية ، قال :

هذه الحاجة الشديدة من الأمة بعثت فينا روح الإقدام لوضع تفسير للقرآن الكريم ، مستمد من كتب التفاسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيق ، لنتمكن من وضع المعنى فى أبسط وأدق القوالب العربية العصرية التى اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم . بشرط أننا لم نضع من فكرنا الخاص فى المعنى الجوهرى للآيات شيئاً . . . أما الذى لنا فى هذا الكتاب ، إن شاء الله ، مما نعده ثمرة اجتهادنا فهو : مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله ، وتعدد قراءاته ، وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه ، واستلفات القارىء لمعجزته العلمية الكبرى التى تشهد له بالصراحة التامة ، بأنه كتاب الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإقامة الأدلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف ، ونقل شهادات كبار رجال العلم الأجانب على ذلك . . . ويسبق ذلك

فذلكه فى فلسفة الأديان ، وما آل الناس إليه فى هذا العصر من جهة التدين » .

هـــذه هى الخطة التى رسمها لنفسه ليقوم بتحقيقها فى التفسير ، وفى مقدمته :

أما المقدمة فقد بدأها بما سماه « فذلكه فى فلسفة الأديان . الخ » . وقد استغرقت هذه الفذلكة معظمها . وغلبت عليه فيها روح الأبحاث التى كان يعالجها فى « الحديقة الفكرية » ، وما كان يعالجه من ذلك فى « الإسلام فى عصر العلم » ، مما يتصل بفلسفة الأديان ، ومراحل الإيمان وخصائص الإسلام ، وما إلى ذلك ، فإذا هو مستغرق فيها مسترسل معها ، حتى إذا ما كان عليه أن يتكلم فى تاريخ القرآن وكيفية نزوله، وقراءاته وما إلى ذلك مما ذكره فى منهجه لم يأت بجديد ، ولم يكد يزيد فى هذا عن مثل ما جاء منه فى كتاب ككتاب الإتقان للسيوطى دون أن يبدو له فيه جهد خاص يستحق التنويه .

وأما التفسير فقد قال فى مقدمته :

« أما بعد ، فإنى حوالى سنة ١٣٢٣ حاولت أن أقرأ القرآن قراءة تدبر وفهم ، كما أمر به موحيه سبحانه وتعالى فأعوزنى أن أجد من التفاسير مايبلغنى أمنيتي من أقرب الطرق وأسهلها ، فإن المطولات لا يتسع لها وقت أمثالى من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم ، والمختصرات قصد بها حلول المسائل الفنية من التفسير . وكان مرادى تفسيراً يعطى الألفاظ العربية حقها من البيان ، ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية مع بيان أسباب نزول الآيات ، ليتجلى للقارىء المعنى بكل جلالة . فأخذت أضع تفسيراً لنفسى ، وشرعت أكتبه على هامش مصحف ، لاتخذه عمدة لتلاوتى للكلام الكريم . وقبل أن أتمه أدركت أن هذا

العمل طلبة كل تال للقرآن العظيم ، فرأيت أن أتم ذلك التفسير وأطبعه ليعم انتشاره ، ففعلت ، وهو هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم ، راجياً أن أكون بهذا العمل سبباً فى نشر معنى كتاب الله بين ناس لم يكونوا ليبلغوه فى حياتهم ، إما لأن أعمالهم لا تمكنهم من الاطلاع على التفاسير وأما لأن مادتهم العلميـــة لا تسمح لهم بأدراك أغراض المؤلفين السابقين » .

كما قال فى مقدمة الطبعة الثالثة التى صدرت سنة ١٩٢٥ ، متحدثاً أيضاً عن بعض ما أراد أن يكون من خصائص تفسيره هذا :

« هنا يجب على أن أنبه إلى أنى أستخلصت هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين وأقطاب أهل السنة ، فلم أخرج به عن سننهم قيد شعره ، ليوافق مذهباً من المذاهب ، أو يؤيد رأيا من الآراء الفردية ، ولو اضطرنى الكلام فى بعض الآيات على أن أورد رأياً لى ، أو لأحد من غير أهل السنة ، نبهت عليه وعزوته لقائله ، حتى يكون القارىء على بينه من أمره .

وقد راعيت فى تفسيرى هذا أن أعنى باللغة عناية لم يعن بها مفسر من السابقين ، فإنهم ، فيما يظهر ، لغزارة مادتهم اللغوية ، لم يلموا من لغة القرآن إلا بالغريب الذى يعلو عن متناول كثير من الخاصة ، ولكننى رأيت أن الكتاب الكريم قد جمع أوجه كلمات اللغة العربية ، وعقائل مفرداتها ، ونحن أحوج ما نكون إلى التقوى فيها ، لنحفظ وجودها من عبث العجمة بها ، فشرحنا المفردات شرحا وافياً ، ودللنا على أصولها ، وأتينا بمشتقاتها ، والتزمنا أن نشرح اللفظ حيث وجدناه ، ولو صادفناه فى كل صفحة من صفحات المصحف » .

وإذا كان محمد فريد وجدى لم يلتزم فى المقدمة ، التزاما دقيقاً ، بما اختطه

ورسمه ، فأفرط فى جانب وقصر فى جانب آخر . فإنه فى التفسير حقق مارسمه ، ووقف عند حدود ما التزمه ، فجاء مؤدياً للغرض الذى أراده له أداءكافياً ، من ناحية العناية بتفسير المعانى تفسيراً يجمع إلى الدقة والقصد القرب واليسر ، ومن ناحية العناية اللغوية بتفسير الألفاظ ، كما تجنب اقحام التفسير فى معترك المذاهب ومزدحم الآراء ، فوقف عند التفسير السائد ، دون أن يعرض لرأى خاص إلا أن يضطره الكلام إليه ، فينبه إلى ذلك . وقد وقع ذلك فى مواضع قليلة .

من ذلك ماذكره فى تفسير قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . . » . الآيات ، وتعليقه عليه بقوله : « ربما يكبر على التالى للقرآن أن يعتقد أن الملائكة يجادلون الله . والحقيقة أن هذا تمثيل لحال الملائكة عندما علموا فى عالمهم الروحانى أن كائنا سيظهر على الأرض يكون من أمره مايكون من الفساد، فجاشت فى صدورهم هذه الاعتراضات ، وألهمهم الله الرد عليها ، على نحو ماتراه .

هذا تأويل واجب . لأن الله لايرى ولا للملأ الأعلى ، بنص القرآن »[1].

ومن ذلك أيضاً ماعلق به على تفسير آية النسخ : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ،إذ يقول: « نقول إن النسخ ضرورى فى الأحكام بسبب تطور الأمم ، وترقيها أو تدليها . وبما أن الإسلام دين عملى فلا مناص له من مسايرة المجتمع الإنسانى فى تقلباته ، حتى يبلغ

---

(١) المصحف المفسر ، ص ٨ ، الطبعة الثالثة .

به كاله . أليس هذا أولى من بقاء الأحكام على حالة واحدة ، فيضطر الآخذون بالدين إلى تركها واللجأ إلى تشريع أجنبى »[1]

وكذلك ما علق به على تفسير قول الله تعالى . « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » .

فقد قال فى عقب تفسيره لهذه الآية :

« إن إشارة الكتاب الكريم إلى معجزة إبراهيم هذه تشير إلى أن فى الإنسان قوى إلهية فى إمكانها ، بتوفيق الله ، أن تبعث الحياة فى الجمادات وقد دلت الأبحاث فى المغناطيس الحيوانى فى هذا العصر على ما يجعل هذه المعجزة معقولة علميا »[.

* * *

ذلك هو كتاب « صفوة العرفان » بقسميه : المقدمة والتفسير : وإذا كان قد تم تأليفه وصدر فى صورته النهائية فى المرحلة التالية، بعد الانتقال إلى القاهرة ، فإننا إذ نعده من وجوه نشاطه فى السويس ، نعتبر فى ذلك أصل وضعه ، والجزء الأكبر منه .

على أن التاريخ الذى جعله لمحاولته الأولى قراءة القرآن قراءة تدبر وفهم ، وهو سنة ١٣٢٣ يثير كثيراً من التساؤل . فهو يتعارض مع تاريخ البدء فى طبع « صفوة العرفان » . وهو سنة ١٣٢١ . وطبيعى أن يكون ذلك بعد تلك المحاولة الأولى بزمن غير قصير . كما أننا نعلم أن صلته

---

(١) ص ١٢٢ .

بالقرآن . بتلاوته والرجوع إليه والاستشهاد به ترجع إلى أوائل نشاطه الفكرى . وهو فى دمياط : وقد ظهر أثر ذلك واضحا فى كتابه تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنيه . بل لعله ظهر قبل ذلك فى كتابه الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان .

فأكبر الظن أن هذا التاريخ الذى ذكره قد تعرض لتحريف الطبع وأن صوابه سنة ١٣١٣ وهى السنة التى أخرج فيها كتابه الأول .

١١

وبعد ، فهذه صورة من حياة محمد فريد وجدى ، وطائفة من وجوه نشاطه ، فى هذه المرحلة من حياته . وهى المرحلة التى بدأت بتركه القاهرة إلى دمياط مع أبيه وأسرته ، فى نحو سنة ١٨٩٤ ، وانتهت بتركه السويس وانتقاله إلى القاهرة واستقراره فيها ، فى شهر إبريل ،سنة ١٩٠٥ (كما سنرى ذلك بعد قليل) ، أى منذ كان فى السادسة عشرة من عمره إلى أن ناهز السابعة والعشرين .

والصورة التى رأيناها تمثله لنا طاقة موفورة من النشاط الدائب الذى لا يكاد يفتر ، وتشخصه أمامنا شابا دافق الحيوية ، مرهف القوى العصبية ، شديد التطلع إلى ألوان المعرفة ، مقبلا على القراءة التى تتيحها له فى شغف ونهم ، يود لو استطاع أن يستوعب كل كتاب فى مكتبة أبيه ، وكل ما يظهر فى عالم الحياة الأدبية من مؤلفات ومجلات ، عربيا أو غير عربى ، وقد استغرقه ذلك ، فأصبح متعته التى لا يكاد يهفو إلى غيرها من المتع التى يثيرها الشباب ، ويحفزه إليها اليسر ورخاء الحياة. وكونت له هذه القراءات ، وما كانت تثير فى نفسه من تأمل وتبحثه فيها من خواطر ، عالمه الخاص الذى اشتد به تعلقه . ويأبى هذا العالم الباطنى إلا أن ينعكس فى صورة خارجية . فإذا هو يتخذ صورة الكتابة والتأليف . وإذا بذلك الشاب ـ ولم يكد يبلغ السابعة عشره من عمره ـ يخرج كتاب الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان . ويأخذه بظهوره شىء من الزهو . ولا يكاد يفرغ منه ويستمع إلى أصدائه تملأ أذنيه وتغمر جوانحه ، حتى يكب على غيره ، يكتبه بالفرنسية ثم يحوله إلى العربية ، وتستهويه الكتابة وتملك عليه أمره ، وقد طاعت له أداتها ودان له زمامها . إنها عالمه الباطنى الذى آثره وأحبه ماثلا بين يديه .

ويتدفق ذلك العالم بالأفكار والآراء والخواطر ، فلا يجد لقاء ذلك بدا من أن يخرج مجلة يصدرها شهريا، وينفرد ـ أو يكاد ـ بكتابة فصولها ثم لا يكاد يكف فى خلال ذلك من كتابة المقالات يبعث بها إلى جريدة المؤيد وجريدة اللواء : يعبر فيها عن رأيه وما تتردد به جوانب نفسه ، فى بعض ما يعرض من أمور الدين أو مشاكل المجتمع ؛ ويستمر فى إصدار الكتب وتحرير المقالات لا يكاد يفرغ من فصل حتى يأخذ فى غيره ، حتى بلغت جملة الكتب التى أصدرها أو كان يصدرها فى هذه المرحلة ستة كتب . وحتى بلغت المقالات التى كتبها لجريدة اللواء وحدها نحوا من عشرين مقالا .

هذه المرحلة التى أنفقها محمد فريد وجدى على هذه الصورة ، وهو فى صدر شبابه : فى مدينتين صغيرتين كدمياط والسويس ، وفى حياة بسيطة بعيدة عن تعقيدات المدن الكبرى كان لها ـ ولا ريب ـ أثرها الكبير فى تكوين شخصيته وتوجيه حياته ؛ بما أتاحت له من التوفر على القراءة والكتابة والتأمل ، وبما صرفته عن كثير من التفاهات والصغائر ، كما كانت كبيرة الأثر فيما أشرنا إليه من قبل من إحاطته بعالم عقلى يموج بالأفكار والمثل ، واستغراقه فى هذا العالم ، حتى أصبح آثر لديه من كل اعتبار وحتى كاد يكون عالمه الوحيد ، يمسى فيه ويصبح معه .

ولكن هذه الحياة المقصورة إلى حد غير قليل ، وهذه الإقامة البعيدة عن القاهرة مركز النشاط الفكرى ومجلى وجوهه المختلفة ؛ لم تكن تتفق مع ما كانت توجهه إليه مطامحه من آفاق وما كان يقتضيه عمله فى التأليف ، وقد كاد يصبح له صناعة، من الاتصال بأجهزة الطباعة ، ومكانها القاهرة . وقد عرضه مقامه بعيداً عنها لكثير من المتاعب ووجوه النقص فى طبع كتبه . وقد رأينا كيف كان كتابه الإسلام فى عصر العلم يعانى من التعثر

وأغلاط الطبع ما كان كثير الشكوى منه والاعتذار عنه . كما كان هذا المقام النائي المقصور مما يحول بينه وبين ما كان يرجوه ويتطلع إليه دائماً من استئناف إصدار الحياة .

كان من الطبيعي ، اذن ، إزاء ذلك كله ، أن تراوده فكرة الاقامة في القاهرة ، يجمع فيها بين أطراف نشاطه ، ويستطيع أن يمد مجال عمله ويوسع دائرة خدمته لوطنه وأمته . القاهرة التي عاش فيها نحو العامين ، في إبان التوثب العقلي والتطلع الوجداني ، طالباً بمدرسة التوفيقية ، ورائداً لمواطن الثقافة والفكر فيها ، والتي كان مايزال يختلف إليها بين الحين والحين ، في شأن مجلة الحياة التي كان يصدرها ، ثم في شأن كتبه التي كانت تطبع في مطابعها ، والتي كان يقيم فيها — أثناء العام الدراسي — أخوه أحمد وجدي الطالب بمدرسة الحقوق ، وبعض أصدقائه الروحيين الذين كان يكاتبهم ويشاركهم أفكارهم ومبادئهم في الاجتماع والسياسة كرفيق العظم ومصطفى كامل .

فما أجدر القاهرة — مجال الحركة الفكرية ، كما يقول في صفتها — أن تفتح أمامه من ميادين النشاط ما يتطلع إليه ولا يكاد يتحقق له ، وما أجدرها أن تهيىء له من الأسباب ما يعينه على استئناف إصدار « الحياة » . وكان ذلك أمراً ما زال يراوده ويداعب خياله . إلى جانب اتمام كتبه التي كانت ماتزال تتعثر بين السويس والقاهرة .

وربما كانت بعض الضرورات العائلية هي التي كانت تمسكه بالسويس وتحول بينه وبين الإقامة في القاهرة ، رغم الدواعي الكثيرة التي كانت تدعوه إليها ، وربما كان إلفه للمجتمعات الصغيرة والحياة الهادئة هو الذي جعله يأنس للإقامة في هذه المدينة الصغيرة ، ويشفق من الإقامة في القاهرة بمجتمعاتها المعقدة ، وحياتها الصاخبة ، رغم ما تتيحه من إرضاء مطامحه ، وتحقيق خططه ، وتيسير أموره .

ولا ريب أن هذه العوامل المختلفة والدواعى المتعارضة المتدافعة ظلت تضطرب فى نفسه وتصطرع فى وجدانه ، حتى لم يجد — آخر الأمر — بدأ من ازماع الانتقال إلى القاهرة ، وخاصة بعد أن لم يعد شىء من الضرورات العائلية يمسكه فى السويس ، منذ أصبح — بعد وفاة والده — رأس أسرته التى انفصم بوفاته الرباط الذى كان يربطها بهذه المدينة ، وقد آل إليها ميراث أبيه ، فهو يستطيع أن يبدأ فى القاهرة حياة جديدة مستقلة ، مع والدته وأخوته ، وأن يمضى بها فى السبيل التى اختطها لنفسه على أحسن وجه ، فيما يرجو .

وهكذا انتهت هذه المرحلة من حياة محمد فريد وجدى ، ليبدأ مرحلة جديدة فى القاهرة ، أبعد مدى وأكثر استقراراً .

١٢

فى شهر ابريل سنة ١٩٠٥ كان انتقال محمد فريد وجدى من السويس إلى القاهرة ، كما يؤخذ مما ذكره فى سياق مقالاته التى كتبها بعد وفاة مصطفى كامل ، رئيس الحزب الوطنى (فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨) ، وقص فيها تاريخ علاقته به ، ووجوه هذه العلاقة[1].

وقد بدأت هذه العلاقة بين الرجلين — وكانا متقاربى السن ، إذ كان مصطفى كامل يكبر محمد فريد وجدى بأربع سنوات — على البعد ، حين كان فريد وجدى فى السويس يصدر مجلته «الحياة» ، وكان مصطفى كامل يتهيأ فى القاهرة لإصدار جريدته « اللواء » ، سنة ١٨٩٩ ، فكتب إلى صاحب « الحياة » يفضى إليه بما عزم عليه من اصدار هذه الجريدة ، ويدعوه إلى امدادها ببعض المباحث الدينية والاجتماعية ، فبادر إلى تلبية هذه الدعوة التى ملأت قلبه غبطة ، وأخذ يوالى الكتابة فى « اللواء » حتى بلغت مقالاته فيها نحوا من عشرين مقالة .

كان ذلك هو مبدأ العلاقة بين الرجلين ، ثم فترت هذه العلاقة ، بل توقفت ، بسبب يبدو غريباً . ولعل ذكره كما حكاه محمد فريد وجدى يؤدى الينا صورة من بعض جوانب شخصيته ، وبعض ما كان يسيطر على مشاعره ، فى هذه المرحلة خاصة . قال :

« كان لذلك العهد ، لا يزال وهم لعب « محرر بجريدة » يؤثر على إحساسى تأثيراً غريباً . فاتفق أنى ألفت كتاباً فى ذلك الوقت سميته :

---

(١) هى تسعة مقالات نشرها فى الدستور ، بعنوان «شىء من فقيدنا المحبوب» ابتداء من ١٤ فبراير سنة ١٩٠٨.

(الحديقة الفكرية فى اثبات الله بالبراهين الطبيعية) ، فأهديته نسخةمنه فقرظها ... إلا أنه نسى فى ذلك الذى كنت أفر منه ، وهو لقب (محرر بجريدة اللواء) ، فألصقه بى فى ذلك التقريظ بالخط العريض ، مما لايدع لقارىء مجالا للشك فى أنى أحد موظفى اللواء ، أنقد منه أجراً على مقالاتى . فألم بى من الحزن والاستياء ماحملنى على الاحتيال لتبرئه نفسى بما لايؤثر على سمعته بسوء ، فكتبت إلى المؤيد جملة معناها أن كثيراً من الناس يرسلون إلى مراسلاتهم بعنوان : محرر بجريدة اللواء . الأمر الذى يؤخر وصول المراسلات ، فأرجو من الآن فصاعدا أن يرسلوا مراسلاتهم لى مباشرة . ثم ذكرت فى هذه الفرصة أن غاية مالى فى جريدة اللواء أن سعادة صاحبها كلفنى بكتابه فصول فى الاجتماعيات ، فلبيت طلبه . وقد حدث لى الآن ما يمنعنى عن ذلك » .

وبالرغم مما تبادله الرجلان على أثر ذلك من رسائل العتاب والاعتذار ووعد فريد وجدى بالعودة إلى الكتابة فى اللواء ، « بعد أن يعلم الناس استقلاله فى كل مايكتب ويقول » كما يحكى هو عن نفسه ، معقباً على ذلك بقوله : « وهى نزعة لازمتنى طفلا ، ونمت معى شابا ، ولم تزدها السنون الا رسوخا فى طبيعتى » وبالرغم من ذلك فقد انقطع محمد فريد وجدى عن الكتابة فى « اللواء » ، وفترت صلة مابين الرجلين ، حتى سنه ١٩٠٦ .

وكان محمد فريد وجدى قد انتقل الى القاهرة واتخذها مقاما له ، كما قلنا . وكانت الصحف أخذت تردد إشاعة عن مؤتمر للأديان ينعقد فى اليابان ، وجعلت تتحدث عن ضرورة اشتراك مصر فى هذا المؤتمر ، بايفاد بعض المفكرين الذى يمثلون الدين الإسلامى ، واذا باللواء يخرج على الناس ذات يوم قائلا : إن الذى يصلح من أهل مصر لتمثيل الدين الإسلامى فى هذا المؤتمر ، وهو حاصل على الكفاءة العلمية فى الدين واللغة

هو أحد رجلين : محمود بك سالم ومحمد فريد وجدى . فكان ذلك بدء انتهاء تلك القطيعة أو ذلك الفتور .

ولا بأس فى أن نورد هنا ما كتبه محمد فريد وجدى فى المقال الثانى من مقالاته تلك ، بعد ايراده ذلك الذى قالته اللواء فى الترشيح لمؤتمر الأديان ، وتعبيره عن تأثره الشديد به ، قائلا إذ ذاك لنفسه : ياسبحان الله ! ماكنه هذا الفؤاد الذى يحمله هذا الشاب ، يعنى مصطفى كامل . قال : « فأصررت على وجوب تجديد عهدى به ،وتقت إلى رؤيته وصحبته وأن كنت أضن بنفسى عن أكبر كبير سواه . ولم ار أجمل وسيلة أعيد بها تلك الصلة من كتابة أسطر معدودة ، شكراً على هذا الانعطاف منه . وشفعت ذلك برأى أبديته فى الموضوع . فنشر الكتاب فى اليوم التالى ، وعلق عليه تعليقاً هو غاية فى الظرف ... وقد كانت تلك فرصة من أجمل الفرص للذهاب اليه ومقابلته . الا أنى، لما أشر به قلبى من العزة الفطرية، لم أشا أن أكون أنا البادىء بالذهاب اليه ، بدون دعوة على الأقل . وقلت : إن كان ماأتخيله فى تلك الروح صادقا لم يترفع عن طلب مقابلتى فى بيتى أو فى بيته ،كما هى العادة بين روحين متناسبين مطامح وأخلاقا . فما كانت الا ساعات معدودة ، ريثما علم أنى بمصر ، حتى كتب إلى هذا الخطاب ، وهو من الخطابات التى وجدت صورها ، وهو هذا :

أخى الفاضل ، حفظه الله

تحية وسلاما وشوقا وإحتراما ، وبعد، فإن لى شوقا شديداً لمقابلتكم . وفى عزمى السفر إلى أوروبا يوم الثلاثاء المقبل ، فهل يمكنكم التفضل على بالمقابلة قبل ذلك اليوم ؟ وهل ترضون تشريف هذه الأمة ودينها الكريم بالسفر إلى اليابان لحضور المؤتمر ، وتأدية الخدمة السامية التى تطلبها المسلمون والإسلام .

أنتظر جوابكم ، وأرجوكم قبول الاحترام وفائق السلام » .

وهكذا راجع محمد فريد وجدى صلته بمصطفى كامل ، وإن كان يشوبها غير قليل من آثار طبيعته المتحفظة ، ومزاجه الاعتزالى ، وشدة اعتزازه بنفسه . فبقيت زمنا مقصورة على الاتصال الروحى ، واقفة عند حدود تبادل الرسائل ، ولم يلقه ، على شدة رغبته فى لقائه ، إلا فى السنة التالية .

وانصرف إلى كتابة بحث عن الإسلام يقدمه إلى مؤتمر الأديان فى اليابان . أما السفر فيبدوا أنه لم يهش له ، وإنما وقف منه موقف المتحفظ كما نرى ذلك فى جوابه على رسالة مصطفى كامل إليه ، إذ يقول إنه لا يتأخر عن السفر إلى بلاد اليابان لو كانت صحته تسمح بذلك .

ولم يكن الأمر فيما نحسب أمر صحة وسقم ، وإنما هى تلك الطبيعة المتحفظة المقصورة ، وتلك الانعزالية التى لا تكاد ترى غير العالم العقلى . فالأمر الذى استهواه من ذلك المؤتمر ليس هو السفر ، بل كونه أتاح له الفرصة لينصرف إلى نفسه ، ويعكف على كتابه بحث جديد عن الإسلام ، جدير بأن يقرأ بين المؤتمرين المجتمعين — كما كان يقال — من مشارق الأرض ومغاربها ، ولعله يكون سببا فى أن تصطنع الأمة اليابانية الإسلام . وكان فيما رددته بعض الصحف فى حديثها عن ذلك المؤتمر ، وتناقلته المجالس ، أنها تريد أن تصطفى لنفسها دينا تدين به[1] .

---

(١) ومضت الإشاعة فى سبيلها ، فزعمت أن المؤتمر قد انعقد فعلا فى موعده ، وأن فلاسفة اليابانيين الذى حضروه بدا منهم ميل إلى اختيار الديانة الإسلامية . وقد كتب محمد فريد وجدى فى مجلة الحياة (الجزء الأول من المجلد الثالث ، ص ٣٩) معلقا على ذلك بما يدل على مبلغ ما كان لهذا المؤتمر (المزعوم) من خطر فى الأذهان إذ ذاك . قال :

ولو صح هذا النبأ ارتفع شأن الإسلام فى لحظة واحدة من حال إلى حال آخر ، ليس من حيث المجد الدنيوى فقط ، بل من حيث الإصلاح الدينى أيضا - فإن اليابانيين أمة حية لا ترضخ للاشكال الجامدة التى أدخل المسلمون أنفسهم فيها بأيديهم ولابد أن تسلك فى دينها الذى انتخبته لها ، مسالك الأحياء مع عقائدهم ، فترجع بالدين إلى ما كان عليه فى زمن الصدر الأول =

وقد عرض له الحديث عن هذا الموضوع فى سياق الفصل الذى كتبه فى دائرة معارفه عن الرؤيا ، وأشرنا اليه فى موضع آخر ، فقد حكى عن نفسه أنه رأى ، فيما يرى النائم ، كأنه فى حضرة ميكاد واليابان ، وأنه موضوع احترامه وتبجيله ، إلى آخر ماقصه من ذلك . ثم قال :

« مضى على هذه الرؤيا نحو من خمس سنين ، فأخذت الجرائد المصرية والسورية والتركية تشيع أن فى العزم إقامة مؤتمر فى بلاد اليابان ، للبحث فى الأديان ، وأكثر المرحوم مصطفى كامل صاحب جريده اللواء من الاهتمام به ، ورشح رجالا لحضور ذلك المؤتمر ، بالنيابة عن علماء مصر ، وذكرنى وصديق الفاضل محمود بك سالم ، القاضى بالمحاكم المختلطة كان ، وكاتبنى فى هذا الشأن . ولكنى لم أجد فى نفسى انبساطا إلى تلك الرحلة الدينية ، فاعتذرت له ، ووعدته بكتابة رسالة باللغة الفرنسية فى الدين الاسلامى ، ووفيت بوعدى ، وأرسلت تلك الرسالة إلى رياسة ذلك المؤتمر . ثم قمت بترجمة تلك الرسالة فى كتيب صغير ، سميته : (سفير الاسلام) . فنال هذا الكتيب من الانتشار مبلغا كبيراً » .

وهذا البحث الذى كتبه ليقدم إلى مؤتمر الاديان باليابان يقوم على عمومية الاسلام ، كما وضحه فى قوله عنه ، فى مقدمته :

= من المسلمين ، ولا يمر عليهم عشرون من السنين حتى ترى فيهم أئمة يهدون بأمر الله بلغة القرآن وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانهم رجال عمل ودأب لايهابون المصاعب ولا يرهبون المتاعب متى كان وراءها لهم رقى ظاهر ومجد باهر . وقد اتخذوا المدنية أوربا سنين معدودة ، فاصبحوا فى مقدمة أهلها ، وقد شهد لهم الاوربيون بأنهم سبقوهم فى كثير من فروعها . وليس هذا كل مافى المسألة فأن اليابانيين أصبحوا طليعة الحياة فى جميع آسيا الشرقية ، وفيها نحو ستمائة مليون من النسمات كلها مستعدة لتتحرك بحركة اليابان والاقتداء بأعمالها ومراميها ، فلا تمضى سنين معدودة حتى تصبح تلك الاصقاع كلها إسلامية محضة . . ويكون هذا العصر عصر أكبر معجزة من معجزات الإسلام الخالدة ، وآية من آيات الحق فى أخذه بيد الحق الذى أهمله أهله واضاعوه .

« لم أجعل غرضى من مقالى هذا الا أمراً واحداً ، اذا فهم حق الفهم كان أشد فى جذب الناس الى الدين من كل البراهين المفحمة ، والحجج الملزمة . ذلك الأمر هو أن الإسلام ليس بدين جديد جاء لأمة معينة ، وإنما هو الدين الذى أوحاه الله الى جميع رسله ، فحرفه أتباعهم ، ثم انزل الى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أخيراً ، لإحداث إصلاح دينى عام ، لسائر الأمم ، شرقيها وغربيها ، حين تعارف الأمم واتصالها ، ليكون دينها العام الذى عليه يتم اتحادها ، ويصفو لديه تعارفها . ولذلك جعل قاعدته الإيمان بسائر رسل الله ، من نعرف اسماءهم ومن لانعرف اسماءهم ، وبجميع كتب الله ، بأى لغة كانت ، كما سيمر بك تفصيلا .

فهم هذا الأمر يفيد المسلم وغير المسلم :

فيفيد المسلم لأنه يريه أنه تابع لالدين من ضمن الأديان المنعزلة المتعادية ، ولكن للدين الأصلى الجامع لسائر الأديان ، فهو بهذا يجد فى نفسه قيمة لم يحس بها من قبل ، لأنه يرى نفسه رجلا عاما لاخاصاً ، ومتبعاً دينا هو فى نفسه دين الكل ، وجامع أرواح الكل ، فى أكمل شكل وأجمل حال . فمن كان كذلك فلا يتحامل على الأديان ، لأنه أمر بأن يؤمن بها كلها ، وأن يكون منها بالمركز الأوسط ، مكتفيا بما فى كتابه من خلاصاتها . ومن أدرك من الناس مقامه فى هذا المركز الأوسط العام ، وشعر أنه فى مجتمع أميال الأمم ، وفى نقطة تلاقى مراميها واتحاد اقتنها ، فى يوم من الأيام ، فلا يهون على نفسه أن يميل عنه الى نقطة متطرفة ، ولو سيق اليها بقوة قاهرة .

أما فائدة غير المسلم من فهم هذا الأمر الجلل ، فهو لأنه يسهل عليه المخرج من ورطته ، والخلاص من شكوكه وشبهه ، فإنه مامن عاقل من عقلاء الملل الأخرى الا شعر بأن أيدى الخرافات قد امتدت الى

أصول عقائده ، فيجد نفسه مضطراً الى التأفف منها ، راجياً اصلاحها على أى حال كان . فلو علم أن الأسلام إنما جاء بالاصلاح العام لسائر اديان البشرية ، لأنه دين منعزل مثل سائرها ، لكان التفاته اليه يشبه الأمر الاضطرارى ، لأنه كلما آلمه أمر عما يكرهه فى دينه ، وظنه محرفا عن أصله ، نزع الى ذلك الدين الاسلامى مضطراً مختاراً ، ولا يزال يدفع ويندفع حتى يقع فى دائرته .

لهذا جعلنا غرضنا من هذه الرسالة هذا الأمر الخطير ، فى أظهر أشكاله ، تاركين الدلالة على فضائل الإسلام لغيرنا ممن فى المؤتمر ، خوفا من الا يلتفت لهذه النقطه أحد منهم » .

ذلك هو الأصل الذى بنى عليه رسالته الى ذلك المؤتمر (المزعوم) كما شرحه فى هذه المقدمة التى قدمها بها . وكأنما رأى أن ذلك خير مايتقدم به الى مؤتمر كهذا المؤتمر ، يمثل الأديان المختلفة ، فأراد أن يبين مكان الاسلام منها ، وموضعه بينها ، والصلة الوثيقة التى تصله بها .

وذلك الأصل هو الذى عاد اليه بعد ذلك ، فى سنه ١٩٣٢ ، فشرحه وبسطه فى دراسته التى جعل عنوانها : « الاسلام دين عام خالد » ، كما سنعرض لذلك بعد إن شاء الله .

١٣

لم تكن هذه الرسالة التي كتبها محمد فريد وجدى لتقدم إلى ذلك المؤتمر ، والتي ترجمت إلى العربية ووسمت باسم « سفير الإسلام » أول صورة من صور نشاطه بعد انتقاله إلى القاهرة ، فقد اتخذ هذا النشاط منذ استقر فيها صورة الكتابة في الصحف . وهو يشير ، في سياق إحدى مقالاته في الدستور ، إلى عدة مقالات كتبها سنة ١٩٠٥ في نقص العلوم الأزهرية ، ويحكى فيها قصة لقاء بينه وبين جمهور من طلبة الأزهر ، بعد نشر هذه المقالات(١)

.

ولكن ربما كانت هذه الرسالة أول مؤلف على تام قام بوضعه في هذه المرحلة من حياته . ولم يكن في تقديره من قبل ، وإنما هي الظروف التي ساقته نحوه وأتاحته له

أما الذى كان يقدره ويديره منذ أزمع الانتقال الى القاهرة فهو أن يستأنف إصدار مجلة الحياة التي كانت أعز بواكير نشاطه الفكرى عنده ، والتي توقفت عن الصدور منذ أواخر سنة ١٩٠٠ . فاكبر الظن أنه لم يكد يستقر في القاهرة حتى أخذ يتهيأ ويعد المدة لإصدارها ، في صورة جديدة متطورة .

ولم يتح لنا أن نعرف على وجه اليقين في أى شهر من شهور سنة ١٩٠٦

---

(١) جريدة الدستور ، عدد ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ .

بدأ صدورها . ولكن لابد أن تكون ، على أى حال قد صدرت فى النصف الثانى من ذلك العام[٢].

وقد اتخذت ، هذه المرة ، شعارا تحمله فى صدرها ، وهى أنها «مجلة اسلامية عمرانية فلسفية» ، وإن كانت لاتتناول دراسات العمران — ويعنى به علم الاجتماع — ولا دراسات الفلسفة فى صورة مستقلة، وانما تعنى هذه الصفة أنها تعالج المسائل الإسلامية معالجة عمرانية وفلسفية. فهى مجلة اسلامية فى موضوعها ، عمرانية وفلسفية فى منهجها ، كما يمكن أن نرى ذلك فى أبوابها ، وهى خمسة :

الباب الأول عنوانه : الاسلام ، ماضيه وحاضره . والثانى عنوانه: حلول الشبه الأوربية . أما الثالث فموضوعه دفع الشبه عن الإسلام؛ وأما الرابع فقــد جعله لابحاث « ماوراء المــادة » ، وعنوان الخامس : « الوجديات » .

وإذا كان الباب الثانى ، وهو حلول الشبه الأوربية ، معقوداً للشبه التى توجه إلى الدين عامة ، فالواقع أن مايوجه اليه من شبه هو فى الوقت نفسه موجه الى الإسلام خاصة . وهذا الباب والباب الثالث هما فى حقيقة الأمر استمرار لما بدأه فى مجلة الحياة فى سنتها الأولى ، اذ جعل من أبوابها بابا عنوانه : الشبهات العصرية على الاديان ، ونفيها عن الاسلام ، وقد جعله فى مناقشة ماكتبه برتيلو ، العالم الكيميائى، عن

---

(١) المجلد الثالث الذى بين ايدينا من مجلة الحياة سقطت اغلفة اجزائه التى تحمل تواريخ صدورها . ولم يبق الاتاريخ الطبع على الجزء الأول ، وهو سنة ١٣٢٤ هـ ، وتبدأ فى ٢٥ من شهر فبراير سنة ١٩٠٦ ، وليس لنا — حتى نقف على تاريخ صدور أحد هذه الاجزاء — الآن نلجأ إلى الاستنتاج والافتراض ، كأن تجىء الاشارة فى الجزء الأول الى أن مؤتمر الأديان انعقد فى أول يونية ، فنستنتج من هذا أن صدور هذا الجزء كان بعد هذا التاريخ،

الاديان ، نقدا لها وانتقاضا عليها ، فجعل هذا الباب ، فى السنة الثالثة ، بابين .

وقد تحدث فى المقدمة التى كتبها للحياة فى عهدها الجديد ، وصدر بها العدد الأول ، عن هذه الأبواب بابا بابا ، بما يدلنا على ما كان يعنى بكل عنوان من عنواناتها ، وماكان يدور بخلده عن الموضوعات التى يتناولها فيها :

فقال عن الباب الأول ، وهو باب « الإسلام ، ماضيه وحاضره » ، سندرس فيه الإسلام فى شكله الخاص الذى دان به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه والتابعون ، قبل دخول الفلسفة اليونانية عند العرب وقبل افتتان الناس بالتعاليم ، وابتكار المسائل التى لم تحصل . وتكلف الإجابة عنها . أى ذلك الشكل الذى كان مصاحباً ليقظة المسلمين وحياتهم وسنقارنه بالشكل الذى دعى اسلاماً بعد دخول الفلسفه اليونانية،وخلط مسائل العلم القديم بالأمور الدينية ، فصار الإسلام — بعد أن كان يقف المسترشد على جملته فى ساعة من زمان ، ثم يمضى لعمله وكده — يعوز درسه السنين الطوال ، مع الانقطاع عن سائر الأعمال . وربما خرج الطالب ، بعد صرف العمر فى دراسته ، لايدرى أن يفصح عن ماهية الدين بعبارة جامعة مؤثرة .

نريد فى هذا الفصل أن نفهم معنى الإسلام ، ونعرف مراميه ، التى رمى إليها ، فى الدين والعقل والعواطف والأخلاق ، ونستشرف تلك الروح التى انبثت فى افئدة الناس ، فأحيت مواتهم ، وأيقظت عواطفهم وجمعت كلمتهم ، وسمت بنفوسهم على النفوس، وعلت بهممهم على الهمم. ثم نريد أن نعرف ذلك الفرق بين هذا الإسلام الخالص وبين الإسلام الشائع الآن ، الذى يدرس السنين الطوال ، فلا يكون له أثر فى تهذيب

أخلاق متبعيه وتعديل عوجهم ، بل قد انعكس بهم الحال إلى ضده ؛ حتى صرت لاترى القطيعة بضروبها ، والدعارة بصنوفها ، والاختلال بكافة اشكاله ، إلا فيمن وقف نفسه على دراسته . نريد أن نعرف ماالفرق بين الإسلامين ، لتدرك سبب تخالف النتيجتين ، ثم نسعى بعد ذلك في نشر الاسلام الخالص واشهاره ، مؤيداً بالآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف الصالح » .

وبعد أن انتهى من الكلام عن هذا الباب. ومنهج المجلة فيه ، وأهدافها منه والآمال التي تعقدها عليه انتقل إلى الكلام عن الباب الذي يليه ؛ فقال :

« الباب الثاني عنوانه : (حلول الشبه الأوربية) التي صبها العلم على أصول العقائد عامة ؛ لنرى المتفرنجين منا أن زعمهم بأن زمان الدين قد فات لا ينطبق على الاسلام الخالص الذي عمل به نحوا من مائتي سنة، بل ينطبق على ماحدث بعد ذلك حين دخلت العلوم المنطقية والتفريعات التصوريه إلى أصوله، كما سيمر بك تفصيلا .

وإنا لأجل أن نبلغ غاية إتقان هذا البحث سنترجم الكتاب المسمى (عدم التدين في المستقبل) الذي قصد مؤلفه الفيلسوف (جيو) الفرنسي إثبات أن الدين قد فات زمانه وأن العلم قد حل محله وجاء على أصول الأديان بكل مايسمح به العلم العصري من الشبه والإشكالات . وسنعقب على كل جملة بالردود المناسبة لها التي تبرهن للعالم القارىء أن الاسلام الخالص (لا الذي هو موجود الآن) أعلى من أن تتناوله تلك الشبه، ليؤوب الينا أولئك الآخذون بالجديد . فما كل قـــديم يترك ، ولا كل جديد يؤخذ » .

فقد جعل معتمده في ايراد الشبه الأوربية على الدين كتاب جيو ؛ كما كان معتمده في مثل هذا الباب في السنة الأولى كتاب برتيلو .

أما الباب الثالث الخاص بالشبه الموجهة إلى الاسلام خاصة فقد قال فيه : « سنأتى فيه على كل شبهة أوردها المشككون على الاسلام وبنى الاسلام. وسنرد عليها ردا نهائياً بأقصى مايسمح به العلم والفلسفة » . وأكبر الظن أنه يعنى بالمشككين فى الاسلام المبشرين وبعض المستشرقين الذين كانوا يتخذون أحيانا من بعض الروايات الضعيفة أو الأقاويل المدخولة مطاعن يحاولون بها إثارة الشك وتوهين العقيدة، كما صنعوا فى مسألة « الغرانيق » . وهى من المسائل التى عالجتها الحياة فى هذا الباب .

أما باب ماوراء المادة ؛ وهو الباب الرابع فقد قال عنه :

سنكتب فيه كل مايجد من مباحث العلماء فى أوربا ، من جهة اثبات الروح والخلود، بواسطة علم التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح وغير ذلك، مما دوى له العالم العلمى فى أوربا ، وصار له أكثر من مائتى مجلة خاصة، وزيادة عن خمسة وعشرين مليونا من الأتباع والأنصار من العلماء الأعلام وأصحاب المدارك الواسعة . . .

أما الباب الخامس ، وهـــو الذى سماه باسم « الوجديات » فقد قال عنه :

« سنأتى فيه كل شهر على مقامة خيالية تحتوى على عبرة تهذيبية أو فكرة فلسفية . نعطى الخيال فيها غاية قوته ، والقلم نهاية ابداعه » .

وكان قد بدأ بهذه المقامات — كما رأينا — منذ السنة الاولى من الحياة، متخذة عناوين مختلفة إلى أن استقرت أخيراً على هذا العنوان : الوجديات .

ولم يذكر فى هذه الابواب الخمسة التى رسم فيها خطة المجله ، فى مقدمتها، باب المسائل ،وكان من الابواب المطردة فيها ، يجيب فيه على

ماوجه اليه من مسائل مختلفة متصلة بموضوع المجلة، اجابات مستفيضة فى الاعم الاغلب .

وقد استمرت الحياة تصدر بانتظام، شهرا بعد شهر، طوال السنة الثالثة. وفى خلال السنة الرابعة أخذ محمد فريد وجدى يفكر فى إصدار صحيفة يومية ، حتى إذا أصدرها فى أواخر سنة ١٩٠٧ ، ولم تلبث أن استبدت بوقته كله ، واستغرقت معظم نشاطه ، كان لذلك أثره على مجلة الحياة .

وقد تحدث الاستاذ العقاد عن هذه المرحلة من الحياة فى سياق الفصل الذى كتبه بعنوان : « أزمة قلم » من كتابه : « حياة قلم » . قال :

« كان الأستاذ فريد وجدى يصدر مجلة شهرية تسمى (الحياة) ، ويكتب فيها أحيانا مقامات خياليه تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لإصدار الدستور ، وترك المجلة إلا فى فترات متباعدة ، يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الأدبية مايملأ عدداً من اعدادها وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتى التى كنت أنشرها فى الصحيفة اليومية » .

فقد ظلت الحياة تصدر إذن بعد صدور جريدة الدستور ، وإن كان صدورها بصورة غير منتظمة . وسنرى حين نتحدث عن « الدستور » إن شاء الله أنها كانت خليقة أن تصرفه عن كل شىء عداها ، لا بتحريرها وادارتها فحسب ، ولكن بما جرته عليه — فوق ذلك — من مشاكل سياسية وأزمات حزبية .

وحين توقفت هذه الصحيفة عن الصدور كان محمد فريد وجدى يرجو أن ينصرف إلى « الحياة » يتوفر عليها ، وتحدث فى ذلك مع الأستاذ العقاد — كما يحكى فى هذا الفصل — قائلا « إنه يرجو أن نتعاون معاً فى عمل صحفى نحن أقدر عليه ، وأصلح له ، من الصحافة السياسية ، وأنه

يدرس الفكرة ويلخصها لى ، عسى أن أفكر فيها . ويرجو أن يلتقى نتيجة درسه لها بعد أسبوعين أو شهر على الأكثر ، إذا صح العزم على الشروع فى تنفيذها . . . » كما قال : « إن الحياة أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية . وإنك تستطيع إن تجرب قلمك فى المقامات ، فتظهر الحياة وفيها مقاماتك ومقالاتك ، إلى جانب الوجديات . ولولا أننى أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ، ويغنيك عن عمل آخر ، لشرعنا فيه منذ الساعة ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع »[1] .

فقد كان فريد وجدى يرجو أن يفرغ لهذه المجلة التى تثير فى نفسه ذكريات عزيزة والتى استطاع أن يؤدى بها — كما كان يقدر — خدمات جليلة للفكر الإسلامى والإصلاح الدينى ، فيستأنف إصدارها فى صورة منتظمة ، ويشترك معه فى تحريرها العقاد ومن إليه ممن يتوسم فيهم مشاركته فى اتجاهه .

ولكن يبدو أن المحنة التى امتحن بها فى جريدة الدستور ، والتجارب التى عاناها فى إصدارها ، على النحو الذى نرجو أن نشرحه فى موضعه ، جعلته يتريث ويتلبث ويطيل التفكير والتقدير فى أمر هذه المجلة ، وما إذا كانت تستطيع أن تعوض تكاليفها ، ولا تتعرض لما تعرضت الدستور له . وإلى جانب ذلك كان قد أخذ — فيما يبدو — فى وضع مشروع دائرة المعارف موضع التنفيذ ، فهو مشغول بجمع مادتها ، وكتابة فصولها فكان فى ذلك ماصرفه عن الاستمرار فى إصدار الحياة أو استئناف إصدارها ، ريثما يفرغ من هذه الدائرة ، وإذ ذاك يستطيع أن يعود إليها ، ويستأنف إصدارها ، وسنرى أنه لم يكد يطمئن إلى أن دائرة المعارف قد شقت طريقها حتى عاد إلى الحياة ، سنة ١٩١٤ .

---

(١) حياة قلم ، ط دار الهلال ، ص ١١٠ — ١١١ .

١٤

جاء محمد فريد وجدى إلى القاهرة شابا ناضج الشخصية ، فى السابعة والعشرين من عمره ، مزودا بذخيرة علمية وافرة ، ممتلىء القلب طموحاً إلى أن يتاح له فى القاهرة تحقيق مالم يتهيأ له فى السويس بالصورة المرجوة ، مما انعقدت به آماله ونيط به هواه . وقد سبقته إليها سمعة رنانة كانت الأوساط الأدبية والدينية تردد أصداءها، فلا جرم أن استقبلته هذه الأوساط — فيما نقدر — استقبالا جديرا بالمنزلة التى بلغها بكتبه والشهرة التى انبعثت من دراساته . كما رحبت به الصحف التى كانت تصدر إذ ذاك بالقاهرة كالمؤيد واللواء والمنبر ، وكأنما رأت فيه موازرا قويا بما ترجو أن يكتب لها من فصول . وكان ذلك — ولا ريب — أمرا قريبا من نفسه ، إذ كان يحقق له الغاية التى يتجه إليها، ويمهد لآماله سبيلها.

وهكذا أخذت هذه الصحف ، منذ بلغ القاهرة ، تحمل بين حين وآخر مقالاته .

وطبيعى أن يكون هنا لك شيء من التفاوت والاختلاف بين ما جعل يكتبه فى القاهرة وما كان يكتبه فى السويس ، فتتخذ هذه الفصول التى يكتبها هنا، فى هذا العالم الزاخر المضطرب، طابعا يختلف إلى حد ما عن طابع ما كان يكتبه هناك ، فى ذلك العالم الساكن المقصور ، وقد كان أكثر أمره فيه هو معالجة مسائل الاجتماع والدين والفلسفة معالجة تغلب عليها الناحية النظرية والتأمل الفكرى . أما فى القاهرة فإنها فرضت عليه الاتصال بالاوساط المختلفة ، بالرغم من طبيعته الانعزالية ، وجعلته يشارف مسائل المجتمع ومشاكله ، ويشارك فى مناقشتها ، ويقف بذلك على وجوهها المختلفة . فكان من ذلك — إلى جانب طبيعة الكتابة الصحفية — ما فرض عليه أسلوبا ينظر إلى الواقع ويصدر عنه ويبنى عليه، فيما كان يعالجه فى

مقالاته ، وإن كان يستند إلى حصيلته الواسعة من النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية والتاريخ الاجتماعى .

ويبدو أن من أول ماواجهه فى سبيله هذه الجديدة ، وفرض عليه أن يعالجه ويسخر له قلمه ، مسألة الأزهر وبرامج الدراسة فيه ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فقدكانت هذه المسألة تتصل اتصالا وثيقاً بتكوينه العقلى واتجاهه الدينى .

وكانت مسألة الأزهر من أخطر المسائل بقدر مالهذا المعهد من منزلة دينية رفيعة ، ومكانة تاريخية كبيرة راسخة ، كما كانت من أعقد المشاكل التى يواجهها المجتمع المصرى ، بما كان بداخلها من عوامل مختلفة وعناصر متباينة متضاربة ، وقفت بهذه المشكلة فى مكانها دون حل سنين طويلة ، منذ أخذ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده يدعو إلى اصلاح الأزهر ، فى أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، إلى أن قضى نحبه فى منتصف العقد الأول من القرن العشرين . بل لعلها ترجع إلى ماقبل ذلك ، منذ دب دبيب الحياة الجديدة فى الفكر الإسلامى ، فى أوائل القرن التاسع عشر .

وكان اصلاح الأزهر ، بحيث يساير الحياة الجديدة ، ويأخذ بمتطلبات التطور العلمى ضرورة لامحدى عنها ، ليظل محتفظاً بمكانته مؤدياً وظيفته ، ولكنها — مع ذلك — وجدت معارضة شديدة ومقاومة بالغة من طائفة غير قليلة من شيوخ الأزهر وكانوا يصدرون فى موقفهم هذا عن طبيعة الجمود والنفور من الجديد الراسخة فى أنفسهم وعن الاستجابة لارادة الخديوى أن يظل الأزهر شيئاً تابعاً له وأن يظل أهله ورجاله بطانة خاصة له ، فهو حريص على أن يكون بعيداً عن كل حركة تنبىء باستقلال فى الفكر أو تؤذن بالقدرة على اتخاذ موقف خاص . كما عبر عن ذلك بقوله فى الاحتفال بخلع كسوة التشريف على شيخ الأزهر الذى عين فى

منصبه عقب خروج الأستاذ الإمام من مجلس إدارة الأزهر وهو الشيخ عبد الرحمن الشربيني[1] معرضاً بما كان يدعو اليه الأستاذ الأمام :

« إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيف فى جميع الأقطار الإسلامية . وأول شيء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائدا فى الأزهر الشريف ؛ والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء » .

وقد كان تعيين هذا الشيخ ،بعد خروج الأستاذ الأمام من مجلس إدارة الأزهر ، شيخا للازهر ،وذلك التصريح الذى القاه الخديوى عباس إيذانا بمقاومة كل دعوة إلى اصلاح الأزهر وردع كل حركة ترمى إلى إسباغ شيء من طابع العصر عليه . وقد ردد الشيخ عقب هذا التعيين فى حديث له لبعض الصحف رأيه ورأى السراى فى بقاء الأزهر على ما هو عليه ، بعيداً عن كل تغيير أو حركة تطوير ؛ إذ يقول فى عبارات صريحة :

« ان غرض السلف من تأسيس الأزهر اقامة بيت الله يعبد فيه ، ويؤخذ فيه شرعه ، ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة ، رضوان الله عليهم . وأما الخدمة التى قام بها الأزهر للدين ، ولايزال يؤديها ، فهى حفظ الدين ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغى له » .

---

(١) كان هذا الشيخ من أشد خصوم الدعوة إلى إصلاح الأزهر ، وقد استقال من مجلس إدارة الازهر ، لمعاداته للشيخ محمد عبده ، داعية الاصلاح ؛ حتى إذا اقصى الأستاذ الامام من هذا المجلس كان هو المرشح لمشيخة الازهر .

فليس للازهر ، إذن ،أن يغير كثيراً أو قليلامن أوضاعه ، وإلا خرج على الغرض من تأسيسه ، وهو خدمة الدين التي لا يزال يؤديها . ثم يقول بعد ذلك عن الدعوة التي كان ينادي بها الأستاذ الأمام واشياعه إلى اصلاح التعليم فيه :

« إن الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ، ويحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب ، تحارب الدين وتطفىء نوره في هذا البلد ، وفي غيره من البلاد الإسلامية . . وإني اسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الأزهر ، أو إصلاح الأزهر ، ولكني لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه» .

فذلك هو الرأي الرسمي في مسألة الأزهر ، كما عبر عنه رأس الدولة الخديوي عباس ، وشيخ الاسلام ، الشيخ عبد الرحمن الشربيني : الأزهر مسجد ديني ، وعلوم الفلسفة والآداب أدوات لمحاربة الدين وإطفاء نوره . فالدعوة إلى ادخال هذه العلوم في الأزهر هي محاولة لجعله « مدرسة فلسفة وآداب ، تحارب الدين وتطفىء نوره ، في هذا البلد وفي غيره من البلاد الإسلامية » الى جانب كونها دعوة إلى « انتشار الفوضى في ربوعه » ، وهو ما حذر الخديوي منه .

ولكن كل هذه التصريحات والانذارات ، وما سبقها من اقصاء الأستاذ الإمام عن مجلس ادارة الأزهر ، وتعيين رأس المعارضين للاصلاح شيخا للازهر ، وما تلاها من مرض الأستاذ الأمام ووفاته ، لم تقض على حركة الأزهر والدعوة الى اصلاحه ، بل لم تستطع أن تقفها ، فقد مضت هذه الحركة في طريقها ، واستمر تلاميذ الأستاذ الأمام ومريدوه يرددون دعوته ، ولكن في شيء من المحاذرة والتوجس . وجعلت الأندية الأدبية في القاهرة تردد أصداء هذه الحركة ، ولم يكن من الممكن

بالقياس الى رجل مثل محمد فريد وجدى وقف نفسه على الاصلاح الدينى أن يقف ناحية من الدعوة الى اصلاح التعليم فى الأزهر ، وهو من أهم أصول ماوقف نفسه عليه . ولم يكن من اليسير — وهومن عرفنا اعتدادا بنفسه واعتزازا باستقلاله — أن تمنعه صلة ما بالخديوى جعلته يتوج باسمه كتاب الاسلام فى عصر العلم ، ومايعلمه من أن هذا الخديوى عدو الأصلاح الأول ، وأنه كان من أشد أعداء الأستاذ الأمام لددا وضراوة ، لم يكن من اليسير أن يمنعه ذلك من أن يؤدى واجبه ، ويؤازر هذه الحركة ، بل يشارك فيها ، فكان ممن كتب فى هذا الشأن مقالات متتابعة فى جريدة المنبر والمؤيد ، كما يقول .

وقد أشرنا من قبل الى مقالاته التى كتبها فى أوائل عهده بالقاهرة عن التعليم فى الأزهر وكان هو الذى أشار الى هذه المقالات ، بمناسبة خبر عن تقدم طلاب الأزهر بعريضة يطالبون فيها اذ ذاك (سنة ١٩٠٨) بتدريس العلوم التى تدرس بمدرسة القضاء ، ترشيحا لهم لتولى وظائف المحاكم فكتب فى التعليق على هذا الخبر ، بعد أن أبدى سروره بهذه النهضة ، وإن تاخرت عامين عن وقتها المناسب .

« نذكر فى هذه المناسبة أننا كتبنا فى نقص العلوم الأزهرية عدة مقالات سنة ١٩٠٥ فحضر الينا جمهور من الطلبة يطلبون الينا أن نتوسط بينهم وبين من بيدهم الأمر فى إنالتهم حقهم من هذه العلوم فقلنا لهم : إن الحكومات لاتجيب الا أصوات الجماهير عادة، فان كنتم تحسون بهذه الحاجة فارفعوا عريضة للجناب العالى ممضاه من نحو ألف طالب أو ألفى طالب . فقالوا : وكيف السبيل الى جمع هذه الإمضاءات والمشيخة متى

شعرت بنا قطعت جرايا تنا، وتصيدتنا، واعتبرتنا خارجين على النظام ولاسيما وهى تكره تلك العلوم أشد الكره، وتتبرم من درس الرياضة وتقويم البلدان. فقلنا لهم: إن لم تفعلوا ذلك فلا نملك لكم شيئاً، فانصرفوا[1]».

(١) جريدة الدستور، عدد ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨.

١٥

لم نستطع أن نقف بعد على المقالات التى كتبهما محمد فريد وجدى ، وأشار اليها فى حديثه الذى أشرنا اليه آنفا[1]. ولكنا نستطيع أن نجتزىء عنها بمقالتين كتبهما فى جريدة المؤيد ، أولاهما فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ والثانية فى ٩ ديسمبر ، بعنوان : « اصلاح الأزهر » . وقد أعاد نشرهما فى الجزء الثامن من المجلد الثالث من مجلة الحياة بمناسبة ما أعلنته « نظارة المعارف » ، من خبر عزمها على إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى .

وقد اتجه فى هاتين المقالتين إلى نقض الأصل الذى يتوكأ عليه معارضو الإصلاح ، وهو أن الأزهر مدرسة دينية لا شأن لها إلا بعلوم الدين ، من أجل ذلك أنشئت ، وعلى ذلك قامت ، وفى هذا الطريق مضت حتى اليوم كما رأينا فيما أوردنا من حديث الخديوى عباس وشيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى . وذلك عنده وضع لا حقيقة له ولا سند يعتمد عليه لا من تاريخ الأزهر خاصة ، ولا من الأصل فى المدارس الإسلامية فى القرون الاولى عامة ، وإنما هو وضع حادث فى عصور الانحطاط . وفوق هذا فإن هذا الوضع الذى يصر معارضو الاصلاح على لزومه للازهر ، هو العلة الرئيسية فيما يعانيه . ولا سبيل إلى نهوض الازهر من وهدته التى يتردى فيها إلا بزوال هذه العلة الاولى .

---

(١) ليت جامعة الأزهر — وهى تتهيأ الآن للاحتفال بالعيد الألفى للازهر ، وتعد فى ذلك ، فيما نقدر ، كتابا ضخما عن هذه الجامعة الكبرى — تجعل من اجزاء هذا الكتاب جزءا خاصا تؤرخ فيه حركة اصلاح الأزهر ، مبينة وجوهها واطوارها ، متقصية ما كتب فيها ، ثم يكون من تمام ذلك أن تجمعه وتنشره فى هذا الجزء . ومن ذلك — بطبيعة الحال — مقالات محمد فريد وجدى .

أما عن فساد دعوى أن الازهر مدرسة دينية فإنه يشرح ذلك بقوله :

«يقول المتكلمون كلما عرض لهم ذكر الأزهر إنه (كلية دينية)، وهى تسمية حادثة ضللت أكثر المتكلمين عليه فى مذاهب اصلاحه، وهى لا تنطبق على غرض بانيه ولا على ما فهمه اساتذته وتلاميذه قرونا كثيرة ؛ والحقيقة أن الازهر كان (كليه علمية عامة) لا للدين خاصة، قصد بها واضعها أن تكون على مثال كل الكليات التى كانت منتشرة فى العالم الإسلامى، فى القرن الرابع الهجرى، وما عهدنا المسلمين فى دورهم ذلك قد قسموا مدارسهم إلى دينية ودنيوية، بل عهدناهم موحدين. فكانت المدرسة التى تعلم فيها ابن رشد الفقه، حتى صار من أصحاب الأقوال فى مذهب مالك، هى نفس المدرسة التى تعلم فيها الرياضيات والطبيعيات والفلسفة[1] وكان الأزهر الذى نبغ فيه الجلال السيوطى فى العلوم الدينية هو نفس المعهد الذى درس فيه الطب والاقرباذين، وقل مثل ذلك فى سائر العلوم الرياضية والفلكية والتاريخية التى كان الأزهر معهدا لها من لدن القرن الرابع الهجرى إلى عصر سقوطه فى القرون المتأخرة. وبناء عليه فقد كان الأزهر كلية علمية للعلوم عامة لا للدين خاصة. وإنما غلب الدين فيه سائر العلوم الأخرى لرواج علومه فى تلك الأزمان، لسرعة ارتقاء المتبحرين فيه فى الجاه والشرف — وعندنا أن مجرد تعديل هذه النظرة التاريخية على الأزهر يعدل كثيرا من أفكار المتكلمين فيه».

---

(١) لعله خلط بين ابن رشد الجد، قاضى الجماعة بقرطبة، وابن رشد الحفيد الفيلسوف، على أن هذا الأخير كان فقيها ايضا، وقد قال ابن الأبار عنه : كان يفزع إلى فتواه فى الطب، كما يفزع إلى فتواه فى الفقه .

وبعد أن فرغ من تقرير هذا الأصل فى إنشاء الأزهر ووضعه، انتقل إلى الكلام عن الأسباب والملابسات التى اعترفت به عن ذلك الأصل ، وحولته عن ذلك الوضع ، فقال :

« دام الازهر كلية علمية عامة ، ونبغ فيه فى العلوم الكونية والإنسانية من لا يحصى لهم عدد ، ثم لحقه الاضمحلال بتوالى الفتن فى البلاد ، والاضطراب فى الحكومة . والعلم لا ينجب رجالا فى القلاقل . حتى جاء دور المماليك ، فانحطت العلوم الطبيعية فيه عما كانت عليه فى أسوأ حالاتها السابقة ، ومازالت تنحط حتى جاءت دولة محمد على باشا ، فوجد الأزهر على هذه الحالة ، وكان قد علم من قرع التجارب أن الأمة المصرية لاتحيا إلا بإدخال النظامات الأوربية إليها ، سواء فى الجندية أو المعارف فاندفع فى فتح المدارس على الطراز الأوربى ، وفتح البلاد لمدنية أوربا وعلومها وصنائعها ، فكان هذا أول ما أصاب الأزهر من عوامل التحليل الحقيقية ، لانه أفقده مكانة التفرد بالعلم فى البلاد ، فبعد أن كانت الامة العربية لاتعرف بعد الكتاتيب الحقيرة غير الازهر ، أصبحت ترى بجانبه معاهد للعلوم حاظية من عناية الحكومة بقسط أوفر ، فلم يسع الازهر ، وقد رأى اندفاق علوم أوربا على البلاد ، إلا أن وطن نفسه على أن يكون كلية دينية محضة .

رأى الأزهريون باعينهم هذه الانقلابات المسرعة ، فلم تأخذهم العبرة للاخذ بالأحسن من الجديد الطارىء عليهم ، كما هو نص الكتاب والسنة . . . وكان الحق أن يعلموا ، وقد رأوا المثلات امام أعينهم ، أن البقاء على القديم يورث القهقرى والخذلان ، ولكنهم علموا ولم يعملوا ، أو لم يعلموا ، فلم يعملوا ، وكلاهما فى نظر النواميس واحد .

كان هذا الانكماش من الأزهريين عن الاستفادة بالجديد عاملا ثانيا من عوامل انحطاطه .

ثم لما جاء عصر الخديوى الأسبق استدعت حالة الأمة تقرير سلطة منتظمة للمحاكم فكثر الكلام عن الشرع والقضاء والنظام بين أهل الحل والعقد إذ ذاك ، فكان صوت الأزهريين فى تلك المعامع النظامية أخفت الأصوات ، وكان الحق أن يكون أعلاها ، فكان ذلك مفقدا لأكثر مابقى لهم من الاعتبار فى أعين الخاصة ، فأثر ذلك تأثيراً سيئا على سمعتهم التاريخية .

ثم اندفقت علوم أوربا فى البلاد ، وتسربت معها الشبه والشكوك ، فجاءت الناس تطلب حلولها ، وتعطشت الافئدة لتلمس المخرج منها ، فجاء سكوت الازهريين بازاء هذه المطالب مضيعا عليهم أكثر مابقى لهم فى قلوب العامة أيضا » .

ذلك هو الازهر فى أصله وحقيقة وضعه ، وتلك هى الأسباب التى خرجت به عن هذا الأصل ، والملابسات التى لابسته فحصرته فى تلك الزاوية ، وصارت به إلى ذلك الوضع الأخير ، وهو كونه مدرسة دينية لاشأن لها بغير الدين . وهو نفسه العلة الرئيسية فيما يعانيه من ضعف وهوان .

وليس هذا عند فريد وجدى إلا نتيجة لقانون عام ، خضعت له فى هذا العصر كل معاهد الأديان . فما أصاب الأزهر بسببه هو صورة مما أصاب تلك المعاهد ، وذلك إذ يقول :

« مايراه الناظر فى الأزهر من اختلال النظام واعتلال الأحوال ، كل ذلك أعراض لعلة رئيسية لاتزول إلا بزوالها . وفى رأينا أنه لو أثرت يد قوية على الأزهر ، فأتته بكل ضرب من ضروب النظام ، مع اغفال تلك العلة الرئيسية ، فلا يلبث الخلل بعيداً عنه غير قليل ، ثم يتسرب اليه بأشد مما كان ، فان العلل تدعو أعراضها دائما .

تلك العلة الرئيسية هي شكل من أشكال تلك العلة العامة التي ألمت بكل معاهد الأديان في العالم ، فأورثتها الانحطاط وسقوط الذكر . فما من بلد في الدنيا المتمدنة إلا وقد غض طرفه عن رجال الدين ومعاهدهم. ومن الأمم من جاهرتهم بالعداء والمصادرة . وبيان السبب في ذلك يستدعي منا أن نخوض بالقارىء لجة العلم والفلسفة والتاريخ ، وهو مالامحل له في هذه الجملة . وإنما الذي نقوله على عجل هو أن الأمم قد ترقت مداركها ولطفت مشاعرها ، وصفا وجدانها ، وتقوضت من أذهانها دولة الخيالات والأوهام ؛ فهي تريد أن تدرك الدين اليوم على شكل يناسب مكانها من العقل في الدور الذي وصلت إليه ، وتريد غير ذلك ألا ترى الدين صناعة يحتكرها رجال مخصوصون ؛ يلبسون له أزياء خاصة ؛ وينفصلون عن مجموع الأمة باعتبارات وهمية .

بلغت الأمم إلى هذا المستوى الذي هو مطلوب القرآن ، في أخص معانيه . ولكن رجال الدين ، في سائر أصقاع الأرض ، قد مثلوا دور الجمود في أظهر أشكاله ، فأبوا تسليم مقادتهم لناموس الترقي الذي هو أخص صفات الأحياء ، ونازعوا العلم حقه في مقارعة الظنون والأوهام واستكناه مجاهيل الكون ، وعضوا على حالهم هذا بالنواجذ ، فانقطعوا عن الأمم ، حتى في اللبسة والجلسة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رجال الدين لبعدهم عن مواقع الحوادث الكونية المؤدبة ، والعظات الوجودية المهذبة ، حرموا من التعرض لنفحات الحق التي يرسلها الله على عباده ، في أطواء الحوادث وثنيات الانقلابات ، حتى أصبحوا يمثلون حالة القرون الوسطى بكافة أشكالها . . .

هذه هي العلة الرئيسية التي يشكو منها الأزهر وأمثاله في العالم كله » .

فحمد فريد وجدى ، فى بحثه لمسألة الأزهر ، لايدرسها ، وحسب ، فى نطاق تاريخه ، وما تعرض له من علل ، وما لابسه من ملابسات ، اقترفت به ، ولكنه يدرسها فوق ذلك ، على ضوء ماتعرضت له المعاهد الدينية عامة ، والأوضاع التى صارت إليها الهيئات الدينية فى العالم ، وفى نطاق دراساته عن الدين والعلم وعلاقة مابينهما ورأيه فى الدين الإسلامى من هذه الناحية ، فتأدى إلى أن الأزهر ، بانحرافه عن وضعه الأول ، وبخروجه على المبدأ الإسلامى ، باتخاذه ذلك الطابع الدينى الخاص والشكل الكهنوتى الضيق ، إنما يحمل بذلك العلة الأولى فيما يعانيه ، مما يشفق دعاة الإصلاح من عواقبه ، ويعملون على معالجته ، ولن يتاح ذلك له ، مهما سن له من نظم ، إلا بإزاحة هذه العلة عنه ، وتعديل وضعه على النحو الذى يشرحه بقوله :

« فرأيى أن إصلاح الأزهر لايتأتى إلا برفع هذه العلة العامة عنه ، وذلك إما بجعله كلية علمية عامة ، ويكون الدين من بعض فروعها ، كما كان غرض واضعه . وإما قصره على أن يكون كلية دينية محضة ، على شرط إدخال العلوم الجديدة اليه ، بحيث يكون المتخرج منه صالحاً لأن تعتبره نوابغ البلاد عمدة يرجع اليه فى فهم الشريعة والديانة على الصورة التى تتناسب ومكانة المعارف العصرية . ولابد من اعتبار شهادة الازهر ، بعد ادخال هذه العلوم اليه ، شهادة تخول صاحبها الحق فى التربع فى الوظائف العالية ، لكى لايتخذ الدين صناعة ، وهو المظهر الذى أصبح لايحتمل فى نظر الناس الآن ، وسيكون من أحقر الوسائل فى المستقبل .

وكل هذا لايتأتى إلا بإخضاع الازهر لنظامات المدارس العالية ، بتقسيمه إلى قسم تحضيرى يليه قسم ابتدائى ثم ثانوى ثم عال . ويحتاط لقبول الطلبة من جهة السن والصحة واللياقة بعين مايحتاط به لكل مدرسة فى العالم » .

فيا هو ذا يرى أن أساس الاصلاح هو أن يخلع الازهر رداءه الديني، وينزل عن تلك الصفة التي رأينا مبلغ حرص الرسميين عليها وعلى ألا تداخلها صفة أخرى، من الخديوى إلى شيخ الازهر، واعتبار كل تعديل لها أو أضافة إليها جناية عليه بل جناية على الدين الذى يمثله، ووسيلة إلى محاربته وإطفاء نوره. وسواء بعد ذلك أن يصبح الازهر «كليه علمية عامة» — وهو ماصار إليه الآن فى آخر مراحل اصلاحه — أو يقتصر على أن يكون «كلية دينية محضة على شرط أدخال العلوم الجديدة اليه الخ ماذكره» وهو ما كان يتمثل فى مراحل الإصلاح السابقة كما نعرف.

وهو يرى فى هذا الإصلاح الضمان الوحيد لبقاء الازهر. وإلا فيشبه أن يكون مصيره مصير تلك المعاهد الأوربية التى كانت ملكا لرجال الدين «وكانوا، بازاء الرقى العلمى فى القرن السابع عشر وماتلاه، يمانعون المصلحين فى ادخال العلوم الطبيعية إلى معاهدهم، بل يأبون على ناصحيهم تغيير شكل دروسهم.. ومازالوا يدافعون ويندفعون حتى تغلب عليهم خصومهم بقوة ناموس الرقى وقلبوا تلك الكليات الدينية إلى كليات علمية تنابذ الأديان وتعاديها، بعد أن طردوا رجال الدين منها»(١).

ولكنه بعد أن ساق ذلك المثل وأشخص أمام الأزهر ذلك النذير، رجع فعقب عليه بقوله: «ونحن لانقول إن التاريخ يعيد نفسه، وسيكون هذا حال الأزهر فى زمن من الأزمان. وإنما نقول إن أحلام أعلام الأزهر أكبر من أن تدعهم يسجلون على دينهم تهمة الجمود، فإنهم فى نظر الأجانب عنوان الدين. وفى الحوادث عبرة لمن اعتبر، والسعيد من بغيره ازدجر».

---

(١) ومن قبل قال الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده: «يستحيل بقاء الأزهر على حاله فاما أن يصلح وأما أن يسقط» كما حكى عنه السيد محمد رشيد رضا (المنار، المجلد العاشر، الجزء الأول).

وبهذه العبارات يختم مقاله الأول، ليتحدث في المقال الثاني عن ضرورة إصلاح الأزهر لحياتنا في نواحيها المختلفة دينية وعلمية واجتماعية، وذلك ببيان علاقته بهذه النواحي . « ليتجلى للعالم القارىء ، ببرهان جديد ، أن بقاء هذا المعهد الديني على حالته من الاختلال خطر على الأمة من هذه الوجهات الثلاث » فليس خطر بقائه على حالته تلك « بصفته مدرسة علمية ، ولكن بصفته معهد الهيئة الإسلامية الذي له من هذه الحيثية علاقات أكيدة بحالة المسلمين من الجهات الدينية والعلمية والاجتماعية .»

١٦

كان موضوع الأزهر من أول الموضوعات التى غلبت على تفكير محمد فريد وجدى كما رأينا، وكان حديث اصلاحه من آثر الأحاديث عنده منذ جاء القاهرة فى أواخر حياة محمد عبده، رائد الإصلاح وصاحب الصوت الرفيع القوى فى الدعوة إليه . وكان الكلام عنه – كما يقول فى صدر ثانى مقالتيه اللتين ذكرناهما منذ قليل – « كثير الشعب على قدر تعلق ذلك المعهد بحالة المسلمين الدينية والعلمية والاجتماعية . ولو أفرد الكتاب فى الكلام عن الأزهر من هذه الجهات الثلاث المجلدات لما كانوا متعدين الواجب . ولو كان للاوربيين شان مع معهد لهم مثل مالنا مع الأزهر لشهد العالم كله مضمارا جدلياً تسيل فيه الأفهام على ظبا الأقلام ولاتزال هذه الحرب العلمية حامية الوطيس حتى تنجلى عن فوز أحد الحزبين فوزاً نهائياً لأن الحياة جعلت القوم لا يغمضون على القذى ولا يسكتون على الشجى » .

كذلك كان الأزهر عنده، فلاجرم كاد يستأثر باهتمامه على الصورة التى رأينا طرفا منها . فكان لا يزال يتناوله بدرسه والحديث عنه من هذه الناحية وتلك ، مصوراً قصوره عن إمداد أهله بما هم فى أشد الحاجة اليه لأداء وظيفتهم والقيام بواجبهم نحو الدين ومواجهة الشبه التى توجه اليه، بما يدحضها ويفل غربها، فاصبح العلماء بما أدخلوا أنفسهم فيه من الانقطاع للاقاويل المعضلة وفك رموز كلام بعضهم بعضا أعجز الناس عن رد شبهة أو دحض فرية أو إقامة حجة . وقد علمت العامة منهم ذلك فلوت الكشح عنهم وتركتهم وشأنهم . وصار العامة بما وقر فى نفوسهم من عجز علمائهم وعدم غنائهم عنهم، فى حالة فوضى لا ضابط لشهواتهم ولا رادع لأهوائهم ... وأصبح متنورو الأمة بما يرونه من حال العلماء وجمودهم

على مالا يتفق مع عقل ولا طبع مستقلين فى آرائهم متقاطعين فى دعاويهم، لكل منهم مذهب خاص: أصبح منهم الملحد البحت لا يصدق ببعث ولا بثواب ولا بما فوق ذلك من العقائد الغيبية ومنهم المصدقون بذلك على صفات كونوها فى افئدتهم واستمدوها بظنونهم، ومنهم من تراكمت الشبهات على أذهانهم ففاضت على أفئدتهم فلم يعرفوا لهم مركزا بين الشكوك والحيرة »[1] إلى آخر ماجره قصور التعليم فى الأزهر على سائر الأمة .

وإذا كانت هذه المقالات قد اسخطت طائفة من شيوخ الأزهر وأثارت غضبهم ، فلا ريب أنها استطاعت أن تستهوى طائفة من طلابه الذين كان يسوءهم أن يروا هذه المفارقة الضخمة بين ماهم عليه وما ينبغى أن يأخذوا به ، فكانوا يتطلعون إلى آفاق وراء ذلك الأفق الضيق الذى يتمثل فى حلقات شيوخهم ، وما يتردد فيها من أقوال ومماحكات لفظية لاصلة لها بالحياة الفسيحة الزاخرة وراء ذلك الأفق .

أثارت هذه المقالات تطلعات أولئك الطلاب نحو هذه المعارف التى كانت تتبرج لخيالاتهم ، فاتجهوا إلى صاحب هذه المقالات : يتحدثون إليه فى شأنها ، ويتساءلون عن الوسيلة إليها ، ويتمنون لديه لو استطاعوا أن يتزودوا بالعلوم التى يرى ضرورة التزود بها ، أو لو أنه قبل أن يتخذهم تلاميذ له فيها .

وراقت لديه الفكرة . ألا يعد هذا جزءا من رسالته التى أخذ نفسه بها ، وباتخاذ كل وسيلة ممكنة لتحقيقها ؟ ولم يلبث أن شرع فى وضعها موضع التنفيذ . ولم يكن يعوزه لذلك غير المكان الذى يلقى فيه دروسه على طلابه هؤلاء . ولم يكد يفاتح فى هذا الأمر صاحب المدرسة التحضيرية

---

(١) مجلة الحياة ، المجلد الثالث ، صفحة ٨ (فصل : الإسلام ، ماضيه وحاضره) .

سيد أفندى محمد ، حتى رأى أن يوسع له مكانا فى مدرسته ، يحاضر فيه طلابه . وهكذا ، وبهذه البساطة ، تكونت هذه المدرسة الجديدة التى كان يقوم بالتدريس فيها وحده ، وقد سماها « مدرسة العلوم العالية » ، وحدد الغرض منها بأنه « تخريج فرقة من حملة العلوم الدينية ، فى المعارف العصرية والفلسفة الحديثة ، ليكونوا على بينة من أمر الدفاع العصرى عن هذا الدين الحنيف » .

أما بروجرام هذه المدرسة فيتلخص — كما أورده فى الجزء الحادى عشر من المجلد الثالث من الحياة — فى « العلوم الكونية والاجتماعية ، بأصولها وفروعها، ثم شرح تفصيلات هذه الجملة ، فقال عن الشطر الأول من هذا « البروجرام » كما يسميه :

« فيدخل تحت الاسم الأول جميع العلوم الطبيعية ، على أسلوب ينشىء لدى الطالب فكرة عامة صحيحة عن الكون وعوالمه ، والعلوم التى وضعت لها » . وقد عقب على هذا بأنه سيضع لذلك كتابا جامعا على طريقة جديدة مناسبة لوظيفة طلبة العلم الدينى ، مجليا لهم فيه وجوه العبر الكونية والآيات الوجودية ، منبها أذهانهم إلى مآخذ البراهين الدينية منها ، على الأسلوب الذى دعا إليه دين الفطرة ، الإسلام ، لتنقلب العلوم الطبيعية موقظا لعاطفة الإيمان لا الإلحاد . وإنما تتسرب الضلالات إلى الأذهان من تعلم الطبيعيات لفساد أسلوب تدريسها . وقد قال العلامة باكون الإنجليزى : « علوم الطبيعة إذا رشفت بأطراف الشفاه أبعدت عن الله ، وإن شربت عبا أوصلت إليه » .

ثم جعل يتحدث بعد ذلك عن الشطر الثانى من شطرى الدراسة ، وهو العلوم الاجتماعية ، فقال :

« أما مقصودنا من تدريس العلوم الاجتماعية فالتطواف بحضرات

الطلبة على جميع ما اكتشفته القرائح الإنسانية من النواميس العاملة على ترقية هذا النوع المكرم وما ينتاب تلك الترقية من أدوار وأعراض وأمراض ، وما فتحه الله على العقول من علاجات ووسائل . ويدخل فى هذا الباب درس الأمم من حيث علائقها بالأخلاق والأديان والشرائع الإلهية والوضعية والعادات والأساطير والحكومات والثروة . هذه المعارف العامة قسمها العلماء إلى علوم ، وانقسم العلماء فى كل منها إلى مذاهب ؛ فوجد علم العمران ، والتاريخ ، والأمم ، والطبائع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والشرائع . إلخ ، وتولدت مذاهب الاشتراكيين والكومونستيين وغيرهم ، مما لو خلا ذهن المتصدر لتهذيب الأمم وقيادتها ، فى هذا العصر من الإحاطة به جملة وتفصيلا ، لخلا من ألزم ما يلزمه للقيام بوظيفته . فإن الأمم فى عقائدها وعوائدها وحكوماتها وثروتها لا تسير كما يجىء ، وإنما تسير مقودة بقوانين ثابتة اكتشفها العلم ، فالإضراب عن تعلمها ممن يدعى أنه قائد من قواد هذه الأمة يعد اضرابا عن وسائله فى القيادة فلا يعجبن بعد ذلك إن سقط اعتباره فى نظر من هم تحت قيادته ، وفيهم من هم أعلم منه بذلك » .

وافتتحت هذه المدرسة وبدأت محاضراتها فى منتصف عام ١٩٠٧ ، فيما نقدر[١]

ونستطيع أن نتمثل صورة من هذه المحاضرات فيما كان ينشر من خلاصاتها فى مجلة « الحياة » . وكانت أولاها ، أو المحاضرة الافتتاحية،

---

(١) لم نستطع على وجه التحقيق أن نعين الشهر الذى بدأت فيه محاضرات هذه المدرسة، وكل ما بين أيدينا هو أنه جاء فى التقديم لبروجرامها أن الدراسة بدأت فيها « فى هذا الشهر » أى فى الشهر الذى صدر فيه الجزء الحادى عشر من مجلة الحياة .

بعنوان : « نظرة عامة على العلم » ، تحدث فيها المحاضر عن تقسيم العلوم عند أرسطو ، ثم انتقل إلى الحديث عن آراء العلماء المحدثين في ترتيب العلوم ، كديكارت ، وباكون ، وأمبير ، وديدرو ، وأوجست كونت . وكأنما جعل هذه المحاضرة مقدمة لمحاضراته التالية التي كان يتحدث فيها عن هذه الموضوعات ، (كما نرى ذلك فيما كان ينشر من خلاصتها) :

علم طبائع الموجودات . وقد بدأه بالكلام عن ماهية المادة .

فلسفة الأخلاق .

فلسفة التشريع .

تاريخ المسلمين : عوامل نهضتهم وانحطاطهم ؛ وكيفية معالجة دائهم .

ويبدو أن هذه المدرسة وجدت إقبالا غير قليل على محاضراتها من طلاب الأزهر . وكان محمد فريد وجدى أراد أن يجعل دروسها متاحة للجميع ؛ لا يحتاجون في متابعتها إلى إذن ؛ ولا يلتزمون بأى إجراء . ولكنه لم يلبث أن قيد الالتحاق بها ؛ فاشترط لذلك بعض الشروط العلمية والتنظيمية ؛ ونشر بذلك بيانا في جريدته الدستور ، قال فيه .

« . . وقد توخينا أن نجعل الدخول إليها بلا استئذان تعميماً للفائدة ولكننا رأينا بالاختيار أن بعض الذين يحضرون تلك الدروس غير كفء لتلقى هذه العلوم العالية التي لا تليق إلا بالمنتهين في العلوم الشرعية ، فاقتضى الحال أن نحصر عدد طلبتها في طائفة صالحة للتلقى ، ممن يكونون بلغوا درجة عالية في العلوم الشرعية ، تؤهلهم لفهم أسرار الاجتماع ، ودقائق المسائل الفلسفية ، وأن نسرى على حضراتهم نظاما مدرسيا ، كأن يحضروا في مواعيد معينة ، وألا ينقطعوا عن الدراسة بلا عذر ، وأن يسألوا فيما يتلقونه كل ثلاثة أشهر ، حرصاً على أن يكونوا حاصلين على ما يؤهلهم للوظيفة السامية التي ننتدبهم لها .

فعلى كل من رغب فى حضور هذا الدرس أن يثبت لنا كفاءته العلمية بشهادة يحضرها تدلنا على أنه يدرس الكتب العالية، وعلى وشك الحصول على شهادة العالمية ، وإلا فلنا واسع العذر فى عدم قبول كل طلب يقدم إلينا غير حاصل على هذا الشرط . وإنا لانفعل هذا التقييد تضييقاً لدائرة التعليم ، ولكن لما ثبت لنا بالاختبار أن عدداً صغيراً من الحائزين على هذه الشروط المتقدمة يغنينا عن ذلك الجم الغفير ، ممن يحضرون درساً وينقطعون درساً آخر » .

وكما لم نعرف على التحقيق متى بدأت «مدرسة العلوم العالية» دروسها، فإنا لانعرف على اليقين متى انتهت. كل مانعلمه أنها ظلت مفتوحة تستقبل الطلاب طوال الوقت الذى كان الدستور ينشر فيه ذلك البيان عنها ، أى نها ظلت مفتوحة — على الأقل — إلى آخر شهر يونية سنة ١٩٠٨ .

وبعد ، فهما يكن من أمر هذه المدرسة ، وما لقيته من سخرية بعض الساخرين الذين جعلوا يتهكمون بها ، ويعجبون الناس من مدرسة تسمى مدرسة العلوم العالية تقوم فى إحدى حجرات المدرسة التحضيرية ، ويقوم بالمحاضرة فى مختلف موضوعاتها رجل واحد ، فإنها تؤدى إلينا صورة من طموح ذلك الشاب الذى لم يكن بلغ الثلاثين ، وثقته بنفسه ، وإيمانه بالغاية التى ظلت ماثلة أمامه دائماً ، يعمل لها ، ويلتمس كل وسيلة لبلوغها، مستهيناً بكل جهد يبذل فى سبيلها، وقد كانت هذه المدرسة من وسائله ، وما كان يعبأ بأن تكون فى بناء مشيد الأركان أو فى حجرة متواضعة ، كما كان له فى الفلاسفة القدماء والشيوخ الأولين الذين كانوا يلقون دروسهم فى أى مكان . ويلقون طلابهم فى أى صورة ، ويحملون عبء الدرس فى غير موضوع ، مثال ماثل تجاهه .

١٧

كان مما نشأ عن هذه المدرسة حادث عارض فى حياة محمد فريد وجدى، لابأس فى أن نعرض له ، ونتبين شيئاً من عوامله وعناصره ، لأنه يمثل على — أى حال — جزءاً ، مهما يكن ثانويا ، فى حياة الرجل ، كما يمكن أن تكون له دلالته على بعض ملامح شخصيته ، وعلى ماكان يداخل بعض البيئات الفكرية فى مصر من تيارات ونوازع .

ذلك هو أن هذه المدرسة كانت سبباً فى إثارة شيء من الخصومة بين محمد فريد وجدى ومحمد رشيد رضا ، واتخذت هذه الخصومة بعض المظاهر اللافتة للنظر ، بالقياس إلى كل من الرجلين .

وكانت العلاقة بينهما فى بدئها علاقة مودة وتقدير ، كما رأينا فيما ذكره السيد محمد رشيد رضا عن « فريد بك » فى رسالته إلى صديقه الشيخ عبد القادر المغربى ، ثم فى الفصل الذى كتبه عن كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » وجعله ثانى « رسالة التوحيد » ، للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، كما رأينا ذلك أيضاً فى الكتاب الذى كتبه فريد وجدى إليه ، حين أزمع إصدار كتابه ذلك ، وأراد أن يستعين به فى توزيعه ، فإذا أصدر مجلة الحياة وجدنا العدد الأول منها مطبوعا — طبعته الأولى — فى مطبعة المنار .

ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تلبث أن تراخت ، كما تعرضت مودة بينهما لما شابها . والأصل فى هذا - فيما نحسب - أن الرجلين كانا مختلفين إلى حد بعيد طبيعة ومزاجا وكيانا عقليا ، كما كانا يختلفان كذلك مبدأ وأسلوباً فى الحياة .

ولعل من أول ماأبرز الخلاف بينهما ، فنكر صورة رشيد رضا فى

نفس ذلك الشاب المثالى الممتلىء حماسة ووطنية موقفه فى مجلة (المنار) من الدعوات السياسية الوطنية التى تناهض العناصر الإنجليزية المحتلة. فقد كان من سياسته مسايرتهم والتلطف معهم وتجنب الهجوم عليهم، فكان ذلك مما وضعه عند دعاة الوطنية، فى صف أصحاب المقطم، وكان هو يحاول أن يصرف هذه الخصومة بينه وبين ممثلى الوطنية المصرية - كجريدة اللواء مثلا - إلى الخلاف بين الوطنية الإقليمية والإسلامية الشاملة، فالأمر بين المنار واللواء هو أن اللواء وطنى متعصب، لايرى غير مصر، ولا يرعى سواها، فى حين أن المنار ينظر إلى العالم الإسلامى جميعاً، كما جاء فى أحد اعداده، تحت عنوان: «المنار الإسلامى واللواء الوطنى»:

«بين المنار الإسلامى وجريدة اللواء الوطنية تضاد فيما يسمونه المبدأ، فالمنار يدعو إلى الإصلاح الإسلامى، ويثبت أن المسلمين لايرتقون إلا بترك البدع، ورجوعهم فى الدين إلى ماكان عليه السلف، ويأخذهم بوسائل القوة والمدنية العصرية، فى أمر الدنيا. ويدخل فى الأول أن كل مسلم، أخ لكل مسلم، وفى الثانى أن أهل كل قطر من الأقطار ينبغى لهم التعاون على عمرانه، لايفرق بينهم فى ذلك دين ولا مذهب. وجريدة اللواء لارأى لها فى الدين والإصلاح يسقطها، ولكن لها وطنية عمياء، من معناها أنه يجب على كل مصرى أن يتعصب على كل من يقيم فى مصر، من غير أهلها الأقدمين، وإن كان مسلماً، وعلى كل مصرى مسلم أن يتعصب على كل مصرى ليس بمسلم. وهذا مما ينقضه المنار ولذلك نرى جريدة اللواء تقدح فى المنار، وقلما نطلع على شىء من طعنها»[1].

فالخلاف إذن بين «اللواء» التى كانت تعبر عن الروح الوطنية، والتى كان فريد وجدى من أشياعها، وبين «المنار» التى كانت تنابذ هذه الروح،

---

(١) مجلة المنار، المجلد الثامن، الجزء الثانى عشر (١٧ أغسطس سنة ١٩٠٥).

كان خلافاً واضحاً صريحاً، وإن وجهه المنار بأنه يرجع إلى التعصب المصرى الأعمى على كل من ليس بمصرى . والأمر — على كل حال — موضع نظر، وليس هذا مجال تحقيقه . وإنما نحن فى تلمس الأسباب التى باعدت بين محمد فريد وجدى ومحمد رشيد رضا، حتى انتهت إلى القطيعة، ثم ذهبت إلى المجاهرة بالخصومة، بعد إنشاء هــــذه المدرسة، وإلقاء أولى المحاضرات بها .

فلم يكد محمد فريد وجدى يلقى أولى محاضراته فى «فلسفة التشريع»، وينشر خلاصتها فى جريدة المؤيد، ثم فى مجلة الحياة، حتى انبرى له السيد محمد رشيد رضا فى مجلته «المنار» ناقداً هذه المحاضرة . وبدأ بذلك حملة أراد أن تكون عنيفة موجعة، لم تقف عند حد هذه المحاضرة فى فلسفة التشريع، بل تجاوزتها إلى غيرها، وافتتحها بالحديث عن «مدرسة العلوم العالية» فى أسلوب بثى بشىء من السخرية والتهكم، إذ يقول :

«كتب محمد فريد أفندى وجدى، صاحب مجلة الحياة، منذ أشهر مقالة فى بعض الجرائد اليومية، قال فيها إنه سينشىء مدرسة يدرس فيها العلوم العليا من كونية واجتماعية وعمرانية، ومن ذلك جميع العلوم الطبيعية والفلسفية بأنواعها الخ . أى أنه سيقوم وحده بما تريد لجنة الجامعة المصرية أن تبدأ به، وترى أن مالديها من مال الاكتتاب، وهو عشرات الألوف من الجنيهات، وما وقف على الجامعة من الأطيان، غير كاف للشروع فى هذا القسم العالى، ولكن فريد أفندى وجدى سخى بالوعود . وقد تبرع له سيد أفندى محمد، صاحب المدرسة التحضيرية، بحجرة وفى بها وعده . فهذه الحجرة هى مدرسة العلوم العليا . وقد شرع فريد أفندى فى إلقاء الدروس فيها . ونشر الدرس الأول من علم فلسفة التشريع فى جريدة المؤيد، ثم مجلته . فتذكرنا بقراءته تلك المقالات

التى كان ينشرها فى المؤيد عن الإسلام إذ جاء فيه بمثل ماجاء فيها من أمور تعزى إلى الإسلام وهو لايعرفها ، وفلسفة فيه لايرضاها . وكان خطر لنا أن ننقد تلك المقالات ، قياماً بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،ولكن عرض لنا أمور ثنت عزمنا عن ذلك.منها الرغبة عن انتقاد فريد أفندى لذاته ، ولأنه صاحب مجلة ، ولا نحب أن يكون بين أصحاب المجلات مثل مابين اصحاب الجرائد من المناقشات التى لايؤمن أن تكون من قبيل المراء والمشاغبة . تركنا الرد على ماجاء فى تلك المقالات من مخالفة أصول الدين، والنفس تحاسبنا على مافرطنا ، ونعتذر عن تفريطها بأن تتبع خطأ الناس والرد عليه غاية لاتدرك ، ولا يستطيع القيام بها واحد، وهو من فروض الكفايات . ولكنها ليست مطمئنة بأن هذا العذر يرضى الله تعالى، مع ماترى من سكوت العلماء فى هذا العصر عن إنكار المنكر. ثم عرض لنا مثل هذا عندما قرأنا درس فلسفة التشريع ، وأن كان الخطأ فيه دون الخطأ فى تلك . ثم جزمنا بأن الانتقاد واجب علينا، فبادرنا إلى كتابة هذا النقد فعسى أن ينظر فيه رصيفنا فريد أفندى بعين الإنصاف»[1].

ولا ريب أن هذه اللهجة الساخرة المتعالية أثارت محمد فريد وجدى كما أثاره التعريض المسف بالمدرسة التى كان يعتز بدروسه فيها ، والطعن فى مقالاته التى كان يدل بها ، عن الإسلام ، ودعوى أنه نحل الإسلام ماليس فيه ، وحمل عليه مالايعرفه ، إلى غير ذلك مما يرجع فى بعضه إلى الاختلاف الشديد فى التكوين العلمى والمنهج الفكرى . ولم يكن ليدع الرد عليه ومناقشته ، فرد عليه بأربع مقالات نشرها فى جريدة اللواء ، وأشار إليها فى الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة الحياة قائلا :

«كان لمجلة المنار بعض الاعتبار فى حياة العلامة الشيخ محمد عبده ،

---

(١) مجلة المنار ، المجلد العاشر ، الجزء الخامس (يولية سنة ١٩٠٧) ، ص ٣٧٥ .

رحمه الله ، لتوهم الناس أنه يطلع على مافيها قبل الطبع ، وينقحها . فلما توفى ، رضى الله عنه ، ذهب ذلك الشيء من الاعتبار عن تلك المجلة . فتخيل الشيخ رشيد ، لما أحس لجريدته السقوط أنه يسترجع لها ماكان لها فى قلوب بعض الناس بالطعن على العاملين ، فانتقد على الدرس الأول من فلسفة التشريع ، فرددنا عليه فى أربع مقالات نشرناها فى جريدة اللواء ، ووعدناه بالمزيد إن عاد للكلام فيما لايعرفه ولايعنيه » .

ولم يكن السيد رشيد رضا ليدع أيضاً هذه المقالات دون أن يتشبث بها ، ويتخذها ذريعة للمضى فى الحملة التى أراد أن يلج فيها ، فجعلها موضوع مقالته التى نشرها فى الجزء التالى من المنار ، فى نحو خمس وعشرين صفحة ، لم يقف فيها عند حدود المسائل التى أثارها فى محاضرة فلسفة التشريع ، ومادار حولها من جدال ، وإنما تجاوزها إلى أحد كتب محمد فريد وجدى ، وهو كتاب « كنز العلوم واللغة » ، وكان قد صدر فى ذلك العام . فنقد بعض مواده .وانبرأ عليه بالطعن جملة ، قائلا إنه صورة من صور الادعاء ، وأن « فريد أفندى قد ارتكب بهذا الكتاب أنواعا من المنكرات تزيد على أنواع العلوم التى ادعاها » . ثم جعل يعد من هذه المنكرات ، مما خطر على باله إذ ذاك ، كما يقول ، دون استقصاء : القول فى الدين بغير علم ، وهو من أصول الكبائر ، والكذب ، وناهيك به وبما وردفيه ، وإخلاف الوعود وعدم الوفاء بالعهود والعقود ، وعدم الأمانة فى نقل العلم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والغش فى المعاملة . وفى العلم والدين ، والتغرير ، والتشبع بما لم يعط ، والدعوى العريضة .

كما عاد فى هذه المقالة إلى « مدرسة العلوم العالية » ، فادعى أن فريد وجدى إنما أراد بها أن تكون حبالة لاصطياد الأموال ، كما كان بعض أمره فى كتاب « كنز العلوم واللغة » ، إذ زعم أن بعض الناس نقلوا عنه : « أنه ما إدعى إنشاء مدرسة عالية إسلامية ، تدرس فيها جميع العلوم

العالية ، مع تطبيقها على الدين ، إلا لأجل تحويل أريحية الأغنياء عن الجامعة المصرية إليه هو ، لأن مدرسته تحتوى (بحسب دعواه) على جميع العلوم التى تنشأ الجامعة لأجلها ، وتزيد عليها علوم الدين ، فإذا حولت إليها التبرعات والأوقاف كانت أولى بها وأجدر ثم زاد على ذلك أنه « يقال إنه تعجب بعد أن مر على كتابة تلك المقالة بشأن المدرسة العليا فى المؤيد واللواء شهران ، ولم تنهل عليه الجنيهات ، وتكتتب لمدرسته الوقفيات » .

وكذلك عاد فى هذه المقالة إلى ترديد القول بأن هذا الرجل الذى يدعى القيام بتدريس موضوعات هذه المدرسة هو « فريد أفندى وجدى الذى لم يبرع فى العلوم الأولى ، فيرتق إلى الوسطى ، كما يدل على ذلك سقوطه فى امتحان شهادة البكالوريا التى ينالها الجم الغفير من الأحداث كل سنة » .

لاريب أن هذا الإسفاف فى اتهام محمد فريد وجدى فى أعز ما يعتز به ، ويحرص عليه ، وهو النزاهة وطهارة الضمير والكفاية العلمية ، قد أثاره ، إلى الحد الذى لم يملك معه نفسه ، فور وروده عليه مع ذلك الجزء من المنار ، حتى أخذ فى كتابة رد عليه استغرق ملزمة كاملة من ملازم مجلته الحياة ، بأسلوب لم يعرف به من قبل ، إذ جعل يتناول السيد رشيد رضا فى شخصه ، ويذكر مثالبه — عنده — ومواقفه ، فى مثل قوله ، موجها الكلام إليه : « تظن أيها المسكين أنك تسقط من كرامتى بمناقشات لفظية ، وقد قبعت قبوع القنفد حين دعا الإسلام ابناءه لنصرته أيام تقرير اللورد كرومر . ولم يكفك السكوت وإقرارك بالعجز ، حتى قمت تؤول كلامه تأويلا ثقيلا . ثم حقدت على ذلك الصوت الذى ارتفع فى نصرة الإسلام ، فآليت على نفسك أن تسكته . . . أتريد أن أضرب لك مثلا يريك كيف كنت حين جبنت عن تقرير اللورد كرومر ؟ كنت كالجندى تطوع فى

الجيش ، وأخذ أجره فى السلم وافيا ، فلما انتشب القتال نكص على عقبيه ، وحرض الناس على النكوص ، وعده من ضروب الكياسة والمهارة . هذه الفعلة تسقط أمة برمتها ، فكيف لا تسقط رجلا مثلك » .

فى مثل هذا الأسلوب جاءت كلمة فريد وجدى فى الرد على رشيد رضا . وهو أسلوب لم نعهده عنده من قبل . إذ كان — فيما نعلم عنه — حريصاً على أن يكبت عواطفه ، ويقمع نوازعه الشخصية فى المناقشة والنقد ، ولكن الزمام أفلت منه هذه المرة ، فكان هذا الرد الذى ذيل به ذلك الجزء من الحياة .

ولكنه لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، وراجعه ما كان التزمه من الترفع عن مثل ذلك الأسلوب ، فكتب فى الجزء التالى كلمة قصيرة ، يرجو فيها القراء ألا يعتبروا الصحف التى نشر فيها ذلك الرد جزءاً من المجلة ، قائلا فى ذلك : « وبما أن هذه أول مرة قابلنا فيها الإساءة بمثلها ، فيجب ألا تحفظ هذه الملزمة فى مؤلفاتنا ، ونرجو من حضرات القراء رفعها منها ، إذ ليست من حقهم ، وقد جعلنا نمر المجلة تابعة للملزمة التى قبلها ، فنصبح لا لنا ولا علينا . هدانا الله لخير الأقوال والأعمال ، وحفظنا من زلات الألسنة والأقلام ، إنه سميع الدعاء » .

واستمر السيد محمد رشيد رضا فى حملة النقد التى شنها على محمد فريد وجدى ، فقد ظل يتابعها فى جزأين تاليين للجزأين السابقين ، حين كان فريد وجدى منصرفا للاعداد لإصدار جريدة الدستور .

١٨

فى الفصل السابق الذى تحدثنا فيه عن المعركة التى نشبت بين محمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدى جاءت الإشارة إلى كتاب « كنز العلوم واللغة » ، ومقالات فريد وجدى فى الرد على اللورد كرومر ، وبنا الآن أن نتحدث عن كل من هذين الأثرين .

أما « كنز العلوم واللغة » فهو — كما وصف فى صدره — : « دائرة معارف عامة ، تحتوى على فصيح اللغة العربية ، وخلاصات العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والتاريخية والعمرانية ، وتراجم المشاهير . وفيها من الفوائد الطبية والعلاجية ، والوسائل الحيوية ، ما يحتاج إليه الإنسان فى سائر أحواله المعيشية » .

ولعلنا لاحظنا خلال هذه الدراسة ، صلة محمد فريد وجدى ، منذ أول حياته العلمية ، بدوائر المعارف الأوروبية ، كـدائرة المعارف الكبرى ، ودائرة معارف القرن التاسع عشر ، ودائرة معارف لاروس ، إذ كان مايزال يذكرها وينقل عنها . وقد وجد فيها ما يشبع نهمه العلمى ، ويستجيب استجابة سريعة يسيرة لتطلعه إلى المعرفة فى شتى نواحيها .

ولا ريب عندنا فى أن هذا الأسلوب من جمع المعارف الإنسانية وتصنيفها قد استهواه ، حتى ود لو استطاع أن يصنع نظيره فى اللغة العربية ، بما يناسب حاجات المثقفين عندنا ، فيؤلف دائرة معارف عربية ، فى مجلد واحد ، على نمط لاروس الصغير .

وليس يبعد عندنا أن يكون قد رأى دائرة المعارف التى كان يصدرها المعلم بطرس البستانى ، ثم أخوه نجيب البستانى ، وابنه سليم من بعده . ولكن دائرة معارف البستانى ، هذه ، وإن اتفقت فى المنهج ونمط التأليف مع دوائر المعارف الأوروبية المرتبة على الحروف الهجائية ، كانت فى أكبر الظن — شيئا مختلفا عما كان يتجه إليه فى ذلك الوقت ، فقد كان يريد أن يضع قاموسا قريب المأخذ ، سهل التناول ، يستطيع الباحث

المعجل والرجل العادى أن يرجعا إليه فى يسر . أما دائرة معارف البستانى فقد توسعت فى النقل من هنا وهنا ، وكتبت أكثر موادها فى فصول ضافية ، حتى إن مجلداتها السبعة الأولى لم تتجاوز — على ضخامتها — مواد حرف السين ، بل لم تستكمل مواد هذا الحرف . هذا إلى أن كثيرا من هذه المواد بعيد عن حاجة جمهرة القراء والمتأدبين وعامة الباحثين .

وهكذا اتجه محمد فريد وجدى إلى وضع هذا الكتاب ، وقد أراد ، تيسيرا لتناوله والإفادة منه لعامة القراء والمثقفين ، أن يكون فى مجلد واحد ، وألا تقتصر مواده على العلوم التقليدية والمعارف النظرية ، كعلوم الدين والعربية ، والعلوم التاريخية والجغرافية والفلسفية ، وما إليها من علوم الفلك والطبيعة والكيمياء ، وإنما أراد أن يحقق به ، إلى جانب ما كان العلم يطلب له بهذه المعارف ، من « محض الكمال العقلى أو الإبداع العلمى ، من بعض من تسمو بهم فطرتهم لطلبه اختيارا »، ما أصبح من وظيفة العلم فى هذا العصر ، إذ أصبح « يطلب اضطرارا ، سلاحا للحياة وعدة للبقاء ، وآلة لتخفيف وقـــع النوازل ، وحفظا لمحصولات المجهودات الإنسانية من الآفات المتنابة » كما يقول فى مقدمته .

ومن ذلك عنى بأن يتضمن هذا المعجم « من الفوائد الطبية والعلاجية والوسائل الحيوية ما يحتاج إليه الإنسان فى سائر أحواله المعيشية » ، كما يذكر فيما أثبته تحت عنوان الكتاب صفة له ، وكما نرى ذلك فى المقدمة التى سرد فيها مواده ، فذكر منها « العلوم الطبية والصحية والأقرباذينية والفوائد المنزلية » .

ويبدو أنه بدأ فى طبع هذا الكتاب بعد انتقاله إلى القاهرة واستقراره بها ، كما يدل على ذلك تاريخ الطبع المثبت فى أولى صفحاته ، وهو (١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م) ، ويعنى ذلك أنه بدىء بطبعه فيما بين

١٩

وأما الرد على كرومر ، وهو الذى أشار إليه محمد فريد وجدى فى ذلك الفصل الذى كتبه رداً على السيد رشيد رضا ، فهو أحد وجوه نشاطه فى هذه الفترة من حياته ، قبل إصدار الدستور .

وكان اللورد كرومر قد تعود ، منذ خلف السير ادورد مالت فى منصب المعتمد البريطانى ، سنة ١٨٨٤ ، أن يكتب تقريرا سنويا عن حالة البلاد السياسية والمالية والإدارية . وكان له من إقامته الطويلة فى مصر ، منذ سنة ١٨٧٧ ، حين عين ممثلا للجانب الإنجليزى فى صندوق الدين ، ما جعل تقاريره ذات شأن عند الحكومة الإنجليزية . حتى إذا كان الاتفاق الودى ، سنة ١٩٠٤ ، الذى أطلق يد الإنجليز فى مصر ، ومكن للورد كرومر من السيطرة على البلاد ، فقد ارتفع شأن هذه التقارير وعظم خطرها ، « بحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية ، وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الإنجليزية ، وكان يخوض فيها فى كل ماله مساس بشئون الحكومة المصرية والبلاد ، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال فى الحكومة » ، كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

كما أصبح مسلكه فى البلاد مسلك الحاكم المطلق ، وتصرفاته تصرفات صاحب السلطان المستبد الذى لا معقب عليه ، ولا شأن معه لأحد غيره . فكان ذلك مما ضاعف من سخط الوطنيين عليه ، وقوى من الشعور الوطنى المنبعث من جريدة اللواء والمؤيد وغيرهما ، والمنبث فى أنحاء البلاد . وكان ذلك مما يضيق به اللورد كرومر أشد الضيق . حتى إذا كانت حادثة دنشواى ، سنة ١٩٠٦ ، فقد تفجرت الحركة الوطنية ، وأحاطت الصيحات

المختلفة باللورد كرومر ، تأخذه من هنا وهنا . ولم يغن عنه شيئاً دهاؤه ولا كياسته وحزمه ، إلى آخر الصفات التي كانت تنسب إليه — ولم يعد بد — من أجل مصلحة السياسة الانجليزية فى مصر — من أن يعتزل منصبه ، فما إن عاد إلى مصر من أجازته ، فى أواخر سنة ١٩٠٦ ، حتى عكف على كتابة تقريره السنوى ، وهو يقدر أنه آخر تقرير يكتبه ، فلابد أن يؤدى فيه أمانة منصبه الذى يوشك أن يتركه ويسلمه إلى غيره ، حتى إذا أتمه قدمه وقدم استقالته معاً . فكان من أجل ذلك يعد من أخطر التقارير التى قدمها ، فى جميع النواحى التى تناولها فيه ، سياسية واجتماعية ودينية ، وأشدها إثارة للسخط .

وقد قال عنه السيد محمد رشيد رضا ، فى فصل كتبه بعنوان : « استقالة اللورد كرومر وتقريره » ، تحدث فيه عن اللورد كرومر بمناسبة استقالته التى كان يعزوها لمرض خطير اشتد عليه ، ووصفه فيه بأنه « بما عمل فى مصر يعد من أعظم السياسيين فى هذا العصر ، وقد اعترف له الوطنيون مع الأجانب بالنزاهة التامة ، وترقية مالية البلاد وتكثير مواردها ، واحترام استقلال القضاء والحرية الشخصية فيها ، وناهيك بحرية المطبوعات » ، وكان مما قال عن تقريره :

« وهذا التقرير هو أشد التقارير وطأة على الوطنيين ، لاسيما الذين يعرفون بالحزب الوطنى ، من حيث ما يراد فيه من تغيير الجنسية المصرية ، ومحاولة اقناع دول أوربا بترك الامتيازات ، والاستغناء عنها بمجلس تشريع وطنى ، معظم أعضائه من رعايا هذه الدول . ومما نقل عن التقرير ، فكان شديد الوقع على نفوس المسلمين ، كلام فى الشريعة الاسلامية ، فحواه أنها لا تصلح لهذا الزمان ، وكلام فيما يسمونه الجامعة الاسلامية ، وكلام عن مستر دنلوب فى اللغة العربية »[1] .

---

(١) مجلة المنار ، الجزء الثانى من المجلد العاشر .

كان طبيعياً ـ وهذا شأن ذلك التقرير، وما أثاره فى أوساط الوطنيين ـ أن يتندب رجل مثل محمد فريد وجدى، وضع نفسه فى موضع الدفاع عن القيم الدينية والمبادىء الاسلامية لمناقشة ما جاء فيه من هذه الناحية، وكذلك جاء هذا الرد الذى يشير إليه فيما كتبه رداً على السيد محمد رشيد رضا، والذى نشر فى جريدة اللواء وكان تقديمه إليها مناسبة اللقاء الأول بينه وبين الزعيم مصطفى كامل .

ويحسن أن نورد هنا بعض ما كتبه فريد وجدى عن ذلك، فى إحدى مقالاته التى كتبها عن مصطفى كامل، عقب وفاته . قال :

« صدر تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦، وفيه كلام على الجامعة الإسلامية، فتناول الدين الاسلامى، لهذه المناسبة، بالمطاعن التى عليها قراء العربية . فأسرع مصطفى كامل بنقل هذه المطاعن، وإبداء الاستياء منها، وصاح صيحاته المأثورة عنه، فاندفعت لتقوية صوته، وعملت لذلك رسالة ذات أربعة فصول، يصلح كل فصل منها أن يكون مقالة قائمة بذاتها، حاكمت فيها أقوال اللورد على العلم والفلسفة محاكمة دقيقة، وصدرتها بمقدمة أوحتها إلى نفس مطمئنة بحقيقتها، معتمدة على قوة حججها، وارسلتها إليه بخطاب رجوته فيه أن يأمر بترجمتها إلى اللغة الانجليزية، ليطلع عليها اللورد كرومر بنفسه . وأنا إلى ساعة تحرير ذلك البحث لم أقابل مصطفى كامل، ولا أعرفه لو رأيته، فما وقعت المقالة فى يده حتى أرسل إلى خطابا بالبريد، لجهله بمكان بيتى، يبثنى فيه من الأشواق ما لامزيد عليه، ويقول إنه اشوق مصرى إلى مقابلتى، وذهب فى التلطف فى العبارة ماشاء، فلم يسعنى، بعد تلاوة ذلك الخط الكريم، إلا أن يممت إدارة اللواء، فدخلت عليه، فوجدته مع جماعة من الفضلاء ..

جلس هو على مكتبه وجلست بجانبه . وانتبذ القوم الذين معنا مكانا من الحجرة . وأخذوا فى شأنهم . فطفق صاحبى يكلمنى فى أمر الرد .

ويظهر لى أنه مسرور جدا من مبادرتى بنصرة الدين ، وكبت خصومه الملحدين ، وأطنب فى ذلك ماشاء . ثم قال لى :

هذا كله حسن . ولكنى أرى فى مقدمتك لينا فى اللهجة ، لايصح أن تكون عليه مقدمة رد مطاعن على الإسلام ، وجهها إليه رجل من غير أبنائه ، لاهم له إلا جرح عواطف المسلمين وتسوىء سمعتهم .

فقلت له : أليس إلانة القول مع قوة الحجة خير من الشدة التى ربما نفرته من قراءة البحث كله ، فيفوتنى الغرض من كتابته ؟ وهذا فرعون موسى الذى افتات على الله وادعى الألوهية أمر الله موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى . وأمرنا الله بذلك نصا فقال : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .

وما الذى يضرنى لو ألنت له المقدمة استدراجا ، حتى إذا تورطمعى فى البحث ، وأنست روحـــه منى قصد الحقيقة ، أطمأن إلى الموضوع واشربه قلبه .

فقال : كلا ! انك لم تلن له القول فقط ، بل عذرته فيما قال أيضاً ، وقلت إن فى المسلمين أنفسهم من يقول مثل مقالة كرومر ، افتتاناً بالعلم الأوربى ، وكفى بجملتك هذه مبررا للرجل فى نظر أهل دولته . ولا يبعد عليه أن يقول فى تقرير السنة المقبلة فى تبرئة نفسه إنه معذور فيما ذهب إليه بدليل ماكتبه فلان فى جريدة اللواء ، ويسرد عبارتك بالنص،فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع به عن نفسه .

فقلت له : كل هذا ممكن. ولكنى لا أنظر إلى هذه الاحتمالات مادام

موضوعى الذى أبحث فيه دينى ، ورب الدين يقول : ألينوا القول للمخالفين ، ولا تخاشنوهم عند دعوتهم إلى الإيمان .

قال : ياأخى نحن فى موضع يجب علينا فيه أن نبث فى الأمة روح الحية والعزة بالكتابات المؤثرة ، وهذه فرصة من أجمل الفرص لذلك ، لا أن نقابلها ، وهى فى هذا الغليان الوجدانى ، بما يكسر نفوسها ، ويطمئن من إشرافها»[1] .

فى هذا الحوار الطريف نتمثل محمد فريد وجدى رجل علم يؤثر الأسلوب العلمى والهدوء الموضوعى ، ونراه رجل دين يصطنع الأدب الدينى فى مجادلة الخصم ، ويتجه بالرد والمناقشة إلى ضميره يطمع فى أن يستأنسه ويستميله . وكأنما يتجاهل — لغلبة الطابع العلمى عليه — أن اللورد كرومر رجل سياسة ، وأنه يتولى فى البلاد منصباً سياسيا ، فتقريره هو - بطبيعة الحال - تقرير سياسى ، يصدر فيه عن وجهة النظر السياسية التى يرعاها ويقوم عليها . والأمور الدينية التى عرض لها فى هذا التقرير إنما يعرض لها من وجهة النظر السياسية . وأن السياسة الاستعمارية مازالت تحاول - فى سبيل التمكين للاستعمار - إهدار القيم الإسلامية بكل وسيلة فما جاء فى هذا التقرير عن الإسلام ، هو فى حقيقته ، صورة من صور هذه السياسة . وتلك كانت نظرة مصطفى كامل ، فهو لا يستطيع - باعتباره رجل سياسة ، أن يغفل المعنى السياسى فيه ، والهدف الاستعمارى الذى يقصد إليه .

ولكن محمد فريد وجدى كان لا يزال ، حتى ذلك الوقت ، بعيداً عن السياسة ، مصرا على الوقوف عند حدود ما اختاره وتوفر عليه ، وهو

---

(١) جريدة الدستور ، عدد ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ .

الدراسة الدينية والعلمية والاجتماعية ، ولذلك اقتصر من التقرير على ما يمس الناحية الدينية ، كما التزم أن يصطنع فى مناقشته والرد عليه أسلوبا علميا موضوعياً ، بعيداً عن خطابيات السياسة وحماستها وإثارتها . وكان التزامه هذا الأسلوب موضوع ذلك الحوار الذى رأيناه بينه وبين مصطفى كامل .

وقد عبر فى مستهل رده عما كان لا يزال ملتزما به من تجنب المناقشات السياسية ، فى الجرائد على الأقل ، والاقتصار فيما يكتب على مسائل الدين وما إليه ، فقال :

« صدر تقرير جناب اللورد كرومر ، على جارى عادته السنوية . وما كان موقفى بإزائه إلا كموقف كل مصرى لم يشتغل بالمناقشات السياسية فى الجرائد ، لولا أنه فى هذه السنة استطرد إلى ذكر الإسلام وأصدر على مبادئه حكما كنا نود إلا يستدعى ملاحظتنا عليه ، لاسيما وأن إقامة جنابه بين ظهرانينا أكثر عشرين سنة ، واختلاطه بكثير من المسلمين ، كانا يكفيان لأن يتكون لديه عن مبادىء ديننا علم يتفق مع الحقيقة الفلسفية والتاريخية ، ويكون مشكاة لغيره من الإنجليز ، يهتدون بها فى حكمهم على أسمى الأديان فى هذا العصر ، وهى الديانة الإسلامية .

وأنا لما كانت وظيفتى فى الهيئة الإجتماعية تحتم على ألا أهمل أمثال هذه الأحكام على المبادىء الإسلامية التى وقفت قلمى للدفاع عنها ، لاسيما أن صدرت من رجل كبير ، يتخذ قوم رأيه فيها حجة ، فقد حق على أن أبعث إلى اللواء بكلمات فى هذا المبحث ، راجيا ترجمته فى الإجيشيان ستندرد ، ليطلع عليه جناب اللورد وسائر الإنجليز الذين لهم علاقة بالمسلمين ، ليكونوا على بينة من أمر هذا الدين الكريم ومراميه السامية ، وليكون حكمهم عليه فى المستقبل أقرب إلى الحقيقة والعدالة من جميع الوجوه » .

ثم أخذ بعد ذلك فى بيان المواضع التى يريد أن يناقشها ويبين وجه الحق فيها . من تقرير اللورد كرومر فقال :

« يقول اللورد فى عرض كلامه على مسألة الجامعة الإسلامية : إن الساعين لارجاع مجد الإسلام يحاولون أن يحيوا فى القرن العشرين المبادىء التى تكونت قبل أكثر من ألف سنه لقيادة أمة بدوية على حالة الفطرة . ثم ذكر أن من تلك المبادى مايخالف الفكر العصرى ويناقضه مثل إباحة الاسترقاق، وماجاء فيه عن العلاقات بين الذكر والأنثى ، ولاسيما — وهو الأمر الخطير الأهمية ، كما يقول — اجتماع الأصول المدنية والجنائية والدينية فى قانون واحد ، (يعنى كتاب الإسلام) . ثم ختم تلك الجملة بقوله : إن هذا هو السبب فى انحطاط الأمم فى كل بقعة ساد فيها الإسلام » .

فالمسائل التى جعلها محمد فريد وجدى موضوع مناقشته هى: دعوى عدم ملاءمة الإسلام للحياة فى أطوارها الأخيرة، ومسألة الاسترقاق، ومسألة المرأة من حيث الطلاق وتعدد الزوجات، ومسألة اجتماع الاصول المدنية والجنائية والدينية فى قانون واحد .

وقد ناقش المسألة الأولى فى المقال الأول والثانى ، وناقش مسألتى الاسترقاق والمرأة فى المقال الثالث ، وخص المقال الرابع بمسألة جمع القرآن بين القوانين الدينية والمدنية والجنائية .

ولم تكن هذه المطاعن التى وجهها اللورد كرومر إلى الإسلام جديدة وأنما هو يردد ماداأب المبشرون على قوله وترديده ، وأثار حمية كثير من العلماء لمناقشته والرد عليه .

ومن ذلك مسألة الاسترقاق التى غرى الكردينال لافيجرى، مؤسس طائفة الآباء البيض بالشمال الأفريقى ، برفع عقيرته بها ، واتخاذ الحديث

عنها وسيلة إلى الافتراء على الإسلام وتشويه صورته ، كما نرى شيئاً من ذلك فيما يذكره أحمد شفيق ، فى فاتحة كتابه « الرق فى الإسلام » ، إذ يقول :

« اتفق لى . فى أول يوليو سنة ١٨٨٨ ، أن حضرت بكنيسة سان سولبيس فى مدينة باريس ، وسمعت نيافة الكردينال لافيجرى ، وهو يخطب على أهل تلك المدينة ، ويصف فظائع النخاسة بأفريقية الوسطى ، ويسوق لهم الحديث عن الاسترقاق وبشاعته فى البلاد الإسلامية . ولم يكتف نيافته بإدانة المتدينين بالدين المحمدى بهذا بل نسب قبائحه إلى نصوص الشريعة التى جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام » .

وكذلك فيما نقله عن أحدى الصحف البلجيكية ، وهى تتحدث عن أحدى خطب ذلك الكردينال فى بروكسل ، فتقول أنه « لم يقدر على الامتناع عن المجاهرة بأن المسلمين يرون بأن أصطياد الرقيق حق لهم يكاد يكون واجبا عليهم . وهو حق لهم لأنهم يعتقدون ويقولون بأن الأسود ليس من العائلة البشرية ، وأنه متوسط بين الإنسان والحيوان ، بل إن بعضهم يرونه أدنى من الحيوان مقاما » .

وكان ذلك مما دعى أحمد شفيق إلى وضع ذلك الكتاب فى الرد على هذه الدعاوى ؛ وبيان موقف الإسلام من الرق ، وقد ألقاه فى الجمعية الجغرافية الخديوية ، فى جلسات متوالية بدأت فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٩٠ وأثار كثيرا من المناقشات فى هذه الجلسات ، وفى الصحف التى كانت تصدر فى مصر بالفرنسية . وفى سنة ١٨٩٢ ترجمة إلى العربية أحمد زكى (مترجم مجلس النظار إذ ذاك ، وأحد أعضاء الجمعية الجغرافية) .

وكذلك مسألة المرأة من ناحية إباحة الإسلام الطلاق وتعدد الزوجات .

وكان رد فريد وجدى على هاتين المسألتين بتقرير الأصل فى الإسلام وهو أنه « أنزل فى الحين الذى اكتمل فيه عقل الإنسان ، ليكون دينا عمليا ، لاشكلا خياليا يقدس تقديساً وهمياً . ولذلك روعيت فيه سائر الحكم العملية والأصول النفعية التى لا يستغنى الإنسان عنها، فى كل أدواره وجميع تقلباته . . . . ، وأنه « وفاء بأداء وظيفته العملية النفعية جاء شاملا لكل الخصوصيات التى تجعله كذلك فلم يفاجىء الأمم بهدم عاداتها الاجتماعية ، بأوامر مبهمة غير قابلة للتطبيق ، بل راعى الحكمة التدريجية فى هدمها أو تعديلها . وما كانت أكبر قوة فى العالم لتهدم فى أقل من ربع قرن — وهى المدة التى مكثها النبى صلى الله عليه وسلم بين العرب — ما اقتضته الوف السنين من العادات والشؤون . فكانت وظيفة الإسلام بإزائها وظيفة المربى الحكيم لا الجبار المستبد » . . . وكانت سياسته « أمام كل شان اجتماعى اقتضته القرون المتعاقبة ، وأرسخته العادة والألف ، أن يحصره فى دائرة محدودة ، ثم يسلط عليه من العوامل ما يصلح لأن يقاومه على توالى الأحقاب مقاومة تدريجية ، حتى يلاشيه أن أمكن » .

فعن هذا الأصل كان موقف الإسلام من الاسترقاق ، ومن الطلاق ، ومن تعدد الزوجات ، وعن هذا الأصل كانت القيود التى وضعها الإسلام على الاسترقاق ، والكرامة التى أحاط بها الرقيق ، والمناسبات التى يتاح له فيها العتق . وكذلك الأمر فيما يتعلق بتعدد الزوجات ، من تضييق دائرته بالنصوص المزهدة فيه ، « إلى أن تدخل الأمة فى دور من أحوال الاجتماع يعتبر فيه التعدد مناقضاً لعاداتها ومألوفاتها فيتلاشى » . ثم يقول : « وأما حكمة إباحته وعدم تحريمه بتاتا فهو جواز طرو حوادث اجتماعية تجعله من ضروريات الاجتماع ، كما حدث فى أوربا التى ظلت تشنع على الطلاق أكثر من ألف سنة ، فقضت عليها الحوادث بتقريره فى شرائعها وما يدرينا أنها تقبل مبدأ تعدد الزوجات فى يوم من الأيام » .

وفى هذه المقالة عرض للمنزلة التى أباحها الإسلام للمرأة ، والحقوق التى فرضها . مما يمكن اعتباره استكمالا لكلامه عنها فى كتابه « المرأة المسلمة » ، وتفصيلا لما لم يكن المقام يقتضيه هناك .

أما كلامه عن دعوى تخلف الإسلام عن الحياة فقد أفاض فيه فى المقال الأول والثانى ، كما أفاض فى المقال الرابع فى فرق مابين الإسلام والمسيحية من ناحية الجمع بين الدين والسياسة ، وبيان الملابسات التى دعت أوربا إلى محاربة هذا الأصل منذ القرن الثامن عشر ، مما لا مكان له فى الإسلام الذى لا وجود فيه لطائفة ممتازة ولا لامتيازات كهنوتية . فلا مكان فيه لهذه المسألة التى تسمى : فصل مابين الديانة والسياسة .

٣٠

هذه صورة من نشاط محمد فريد وجدى فى مدى سنتين ونصف سنة منذ جاء القاهرة . ولكن هذه الوجوه المختلفة من نشاطه فى التأليف والتدريس وتحرير مجلة الحياة وإدارتها وكتابه المقالات للصحف اليومية لم تكن ـ فيما يبدو ـ تستغرق جميع طاقته ، أو تحقق جميع مطامحه الأدبية التى ضاعفها وأمدها بقوى جديدة انتقاله إلى هذه المدينة الكبرى، مركز النشاط الأدبى والعلمى والسياسى ، واتصاله اتصالا مباشرا بما تحفل به من تيارات مختلفة . فلا نلبث أن نرى هذا النشاط يتمثل فى صورة جديدة ، وراء يصطنع الصحافة فى أخص معانيها ، ويشارك فى السياسة فى شتى مناحيها ، إذ يصدر صحيفة يومية يشارك بها فى شئون السياسة المصرية ، وما يتصل بها .

وصلة محمد فريد وجدى بالصحافة اليومية صلة قديمة ، ترجع ـ كما رأينا من قبل ـ إلى أوائل عهده بالانتاج الفكرى ، منذ كان يصدر مجلة الحياة أول مرة ، وأحس أنها لا تكفيه فى التعبير عنه ، ولا تكفى طموحه الأدبى . فقد رأيناه يبعث بمقالاته إلى جريدة المؤيد ، وقد استفزته مقالتا هانوتو . وبعثت حماسته مقالات الأستاذ الأمام فى الرد عليهما ، كما اتخذ بعد ذلك من هذه الجريدة ميدانا يجول فيه قلمه ردا على قاسم أمين فى القضايا التى أثارها بكتابه تحرير المرأة ، فإذا ظهرت جريدة اللواء فقد جعلت مقالاته تتوالى فيها ، حتى عد من كتابها ، على الصورة التى أشرنا إليها من قبل .

ولكن مقالاته هذه كانت مقصورة على الناحية الدينية والاجتماعية وهى الناحية التى استغرقته واستبدت به ، قراءة ودراسة وتأملا ، فلم يلتفت فيها إلى السياسة ، بالرغم من إغرائها لشاب مثله ، متوثب الشباب

قوى الحساسية فوار العاطفة . ولعل الحياة المقصورة التي كان يحياها في السويس كانت من الأسباب التي قصرته على ذلك النوع من النشاط الفكرى ، ووسمت مشاركاته الصحفية بسمته ، وصرفته عن السياسة . وربما كان ارتباطه الوثيق في هذه المرحلة ، بأسرته ، وكون أبيه يشغل منصبا إداريا حكوميا ، يمنعه من أي مشاركة سياسية ، من أسباب هذا الانصراف عن السياسة .

حتى إذا انتقل إلى القاهرة فقد أتاح له ذلك أن تتوثق بالصحافة صلته ، وتتسع أمامه ميادين المشاركات الصحافية في جرائدها المختلفة ، فتتابع مقالاته ، ويتخذ في بعضها عنوانا خاصا كعنوان « بحثى اليوم » الذى اتخذه لمقالاته في المؤيد سنة ١٩٠٧ وقد تحرر من تلك الحياة المقصورة التي كانت تجعل هذه المقالات انعكاسا لقراءاته، وصورة من صور دراساته، أكثر منها تعبيرا عما تعج به الحياة حوله من مشاكل، فقد اصبح في مجرى الأحداث ، فهو منفعل بها ، وهو في كتاباته معنى بتحليلها متابع لها . وبذلك أخذت مقالاته الصحفية في المؤيد واللواء والمنبر طابعا جديدا . تنعكس عليه تيارات الحياة الصاخبة المضطربة حوله .

ولكنه مع ذلك ظل حريصاً على تجنب السياسة في جميع ما كان يكتب في هذه الصحف التي هى - قبل شىء - صحف سياسية .

ولكن أكان من الممكن أن يظل معتصماً منها ؛ بالرغم من أن السياسة أخذت تفرض نفسها فرضا على كل مواطن مصرى؛ وخاصه هؤلاء الذين يعيشون في القاهره تغاديهم صحفها وتراوحهم ؛ وتردد أصداءها أنديتها ومجالسها . وهو لم يعد مواطنا من عامة المواطنين ؛ فقد وضعته اتصالاته الصحفية الواسعة في مجرى الأحداث العامه ومهب التيارات السياسيه ؟

وقد كان مما أتاحته مشاركاته الصحفية اتصاله بالزعيم الشاب مصطفى كامل ، فى الفترة التى بلغت فيها الوطنية المصرية غاية عنفوانها ، وبلغ فيها مصطفى كامل أوج قوته فى التعبير عنها وإثارتها . وقد كان لهذا الزعيم سحر خاص فى قلوب المصريين عامة والشباب خاصة ، وقد تعرض محمد فريد وجدى فى اتصاله به لتأثير شخصيته الساحرة ، فلم تلبث الصورة التى كانت له فى نفسه ، قبل أن يتصل به ، وهو يحيا تلك الحياة المقصورة ، أن تبدلت تبدلا تاما ، كما عبر عن ذلك بقوله : « وكنت الغالبة الشبوبية على مزاجى أعجب به إلى حد محدود ، وأعزو كل رفعته إلى جسارة حلاه الله بها ، لا إلى روح سامية حلت فى جثمانه ، كما هى عقيدتى فيه الآن » . أفيمكن ألا يكون لمثل هذه الصلة أثرها فى انتزاعه من عزلته عن عالم السياسة ؟

وإذا كانت طبيعة فريد وجدى المتحفظة ، واعتداده بنفسه وغلوه فى ذلك ، مما جعل اتصاله بمصطفى كامل محدودا . وقلل من فرص لقائه معه حتى إنه لم يلقه بعد مجيئه إلى القاهرة إلا بعد نحو عامين ، فإن الصورة العقلية التى مثلت فى خياله عنه كانت صورة قوية شديدة الإيحاء ، إلى حد انهما لم يكادا يلتقيان للمرة الأولى ، فى دار اللواء ، حتى كان إحساس فريد وجدى أنهما صديقان منذ عهد بعيد ، وأن علاقة من الود واتفاق المشارب والمنازع تربط بينهما برباط وثيق ، وحتى وجد نفسه مندفعاً فى تيار الحزب الوطنى الذى لم يكن قد تألف بعد بصورة رسمية ، يشغله من قضايا السياسة ما يشغله .

فها هو ذا أصبح من رجال السياسة ، ولم تكد تتألف الجمعية العامة للحزب الوطنى حتى صار عضواً من أعضائها . ولكن يبدو أنه كان يفرق بين أمرين : أن يكون مواطناً سياسياً تشغله قضايا وطنية وأن يكون كاتباً سياسياً يشرح هذه القضايا ويدافع عنها . أما الأول فلعله أصبح يراه أمراً محتوما مقضياً لا معدل عنه . وأما الثانى فأكبر الظن أنه وقف

إزاء موقف التحفظ ، لا لأنه يكره أن يكتب في السياسة ، ولكن لأنه لا يستطيع — بحكم طبيعته ونزعته الاستقلالية — أن يضع قلمه في خدمة أي اتجاه سياسي تعبر عنه هذه الصحيفة أو تلك، بحيث يخضع رأيه لرأيها ويطوع قلمه للاتجاه الغالب عليها .

فليس له إذن ، ليكون كاتباً سياسياً ، إلا أن تكون له صحيفته الخاصة .

وهكذا بدأ — فيما نقدر — يفكر في إصدار جريدة سياسية يومية ، إلى جانب مجلته الدينية الاجتماعية الشهرية ، يتخذ بها إلى الغاية التي امتدت واتسعت آفاقها أمامه وسيلة جديدة .

ولا ريب أن المكانة التي احتلها في أذهان المواطنين ، بكتاباته التي كانت تتلاحق في الكتب والصحف ، منذ قريب من عشرة أعوام، كانت مما شجعه على اقتحام هذا الميدان الجديد ، فلم يلبث أن أعلن عن عزمه على إصدار هذه الجريدة ، وقد اختار أن يسهم القراء في رأس مالها ، كما اختار كلمة « الدستور » اسماً لها . إذ كان الدستور عنده هو أهم ما كسبته الأمة لنفسها منذ سنة ١٨٧٩[1] ، وأنه أساس كل رقي سياسي ، وأن استرداده جدير بأن يرد للأمة اعتبارها ؛ ويحقق لها كيانها ، كما يعبر عن ذلك بحديثه عنه ، في سياق تعليقه على خطبة لزعيم الحزب الوطني، محمد فريد ، وذلك إذ يقول :

« إذا عاد الينا الدستور الذي أسسناه بأيدنا ، ودعمناه بأنفسنا بدون

---

(١) كان مجلس شورى النواب قائما في مصر ، منذ سنة ١٨٦٦ . ولكن مبدأ المسؤولية الوزارية ، الذي هو جوهر الدستور ، لم يتقرر إلا سنة ١٨٧٩ ، وكان ذلك بمقتضى اللائحة التي وضعتها الجمعية الوطنية التي اجتمعت في ١٢ أبريل سنة ١٨٧٩ وطالبت بتعديل نظام مجلس شورى النواب ، وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية في أوربا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه .

مساعدة أمة أجنبية ، ولا تدخل نفوذ عال ؛ فقد أخذنا فى أيدينا مفتاح سائر هذه العقد الباطلة ؛ فتصبح وزارتنا فى أيدينا ؛ نولى من نحب ونعزل من نكره وأصبح صوت الأمة هو الصوت الأعلى فى كل مسألة من مسائلها . فالسياسة كل السياسة أن نتوجه بكليتنا لطلب الدستور ؛ لا نكل ولا نمل ، ولا يأخذنا يأس ولا قنوط .. فالدستور الدستور ! لا حياة إلا بالدستور ، لنطلبه بأرواحنا وأصواتنا ، ولنشعر بضرورته أنفسنا وأهلنا ، ولنجعل سيرته حديثنا وسمرنا ، ولنلفظ قول المحرقين المأجورين »[1]

فإذا كان اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧ فقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة التى كان الناس يترقبون صدورها ، لتكون إلى جانب جريدة اللواء صوت الوطنية المصرية الواضح الصريح ، ولسانها الذى لا يمالىء ولا يداهن ، ولا يسالم أو يلاين ، بعد أن فترت حماسة المؤيد وخفت صوته فى مهاجمة المحتل ، واتخذ إزاءه أسلوباً غير أسلوبه الأول ، وبعد أن خاب رجاء الأمة فى بعض الصحف الأخرى ، كالظاهر والمنبر .

وصدر صاحب الدستور هذا العدد بمقالة ضافية تنبىء بالمنهج الذى أراد أن ينتهجه فى هذه الصحيفة التى قال إنه بإصدارها لا يدعى أن فى الصحافة المصرية فراغاً جاء ليسده ، فإن فى ذلك — كما يقول — غمطا لحق من تقدمه من العاملين . فما به إلا أن يزيد فى صوت الدفاع عن حقوق مصر صوتاً جديداً ، لا يختلف فى النغمة عن سائر الأصوات المخلصة . إلا أنه سيتعطر بعبقة من العلم الاجتماعى . فما الدستور والحالة هذه إلا

---

(٢) الدستور ٢٢ ابريل سنة ١٩٠٨ ؛ وأنظر ما كتبه الأستاذ العقاد فى كتابه حياة قلم (ص ٦٧) تعليقاً على اختياره الدستور أسما لصحيفته .

محام جديد انتدبته الأمة . باقبالها على سهومه للمرافعة فى قضية مصر بأسلوب علمى ، ليصبح صوت الدفاع حاصلا على كل مايجعله محترما » .

فهو لاينسى وهو يصدر هذه الصحيفة السياسية ، صفته العلمية التى نشأ عليها وعرفـبها ، فهو يريد أن يطبع صحيفته هذه بطابعها ؛ وهو يرى أن فى اسباغ هذا الطابع على صوت الدفاع عن مصر ما يجعله أكثر قوة ؛ وأجدر أن يظفر بالإجلال ، ويملك بذلك سبباً جديداً من أسباب الإقناع .

أما «العلم الاجتماعى» الذى ينوه به فى هذه العبارة فهو العلم الذى اتجه إليه وأقبل عليه منذ أول عهده بالكتابة والتأليف ، فكان معتمدة فى دراساته المختلفة عن الإسلام وعن المرأة، فى كتابه تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية ؛ والإسلام فى عصر العلم ، والمرأة المسلمة، وجدير به أن يأخذ مكانه فيما هو مقبل على معالجته من قضايا السياسة .

ويبدو ذلك واضحاً فى هذه المقالة الافتتاحية التى استهل بها مقالاته التالية فى الدستور ، أو التى قدمها بين يديها، كما يقول ، فهى ليست إلا بحثا اجتماعياً علميا ، أراد به — على حد قوله — أن يكون « نظرة عامة على حياتنا الاجتماعية والسياسية ، والعوامل التى تتنازعنا من جهتهما ، ومايبنغى أن نسلكه من المذاهب فى سبيل الحصول على غايتنا من الاستقلال والحرية » .وقد تحدث فى هذا البحث عن دور الانتقال الذى يقرر أنه الدور الذى كانت تمر به مصر فى تلك الأيام ، مبينا خطره فى حياة الأمم من وجهة النظر الاجتماعية ، وما ينبغى أن تعتصم به أو تعتمد عليه فى مواجهة مايحفل به هذا الدور من مخاطر ، ويذهب إلى أن العماد الوحيد الذى تعتمد عليه الأمم فيه هو قوتها الذاتية ، فإن أخطأها ذلك كانت مستندة إلى غير سند .

وإذا كانت هذه المقالة الافتتاحية تنبىء بالمنهج الذى أراد الدستور أن يأخذ نفسه به ، والصبغة التى حرص على أن يصطبغ بها ، من التزام الاسلوب العلمى ، وأصول الدرس الاجتماعى فقد عين أهدافه ومبادئه فى البيان الذى دأب على نشره فى أعداده الأولى ، فى هـذه الفقرات :

أولا : المطالبة بالحقوق الطبيعية ، يندرج تحتها الاستقلال والحكم الذاتى ، وبيان وسائل الحصول عليها ، عن طريق الآداب الاجتماعية السلمية .

ثانياً : تقوية العاطفة الوطنية فى النفوس ، وهى العاطفة التى عليها مدار الوجود السياسى للأمم .

ثالثاً : العمل على ترقية الشعور العام بالحقوق والواجبات الاجتماعية واعداد النفوس لقبول عظات الحوادث والاستفادة منها .

رابعاً : العمل على توجيه العواطف والأميال الوطنية المتعددة إلى وجهة عامة مشتركة ، لتكون الأمة شخصية تامة الصورة ، يعرف لها حق فيحترم ، ويعلم لها وجود فيعتبر .

خامساً : تصوير موقف مصر بإزاء الأمم عامة وبإزاء السلطات التى تنازعها خاصة ، وتعيين واجبات المصريين حيال ذلك .

سادساً : البحث فى الأحزاب المصرية ومراميها ، ودرس عوامل كل منها ، والكلام على الجرائد التى تشخصها .

سابعاً : تنشيط حركة النهضة المصرية ، والدعوة للتعليم والتربية ، وارفاد كل ما من شأنه إعداد المصرى للاستقلال والحرية .

ثامناً : نشر مباحث في العلوم السياسية والإقتصادية ، وتركيب الامم ، والحقوق والواجبات الطبيعية ، ونظام المطالبة بها ، وكيفية حفظ الامم لمركزها بين حركات التنازع السياسى والاقتصادى والاستعمارى الواقع عليها من الأمم الأخرى .

ومن تلك المقالة الافتتاحية التى درس فيها وضع مصر الاجتماعى فى تلك المرحلة من حياتها ، مبينا العوامل المختلفة لهذا الوضع والوجوه التى يتخذها ، ومن هذه الفقرات التى لخص فيها خطة الدستور ومبادئه وأهدافه والتى صيغت صياغة علمية موضوعية ، نستطيع القول بأن محمد فريد وجدى أراد — فيما أراده بهذه الصحيفة — أن تكون ميداناً جديداً أبعد مدى وأرحب آفاقاً يستطيع أن يمارس فيه نشاطه العلمى ، ويطبق فيه مبادىء علم الاجتماع ومناهجه ودراساته على أحداث المجتمع المصرى وعلاقاته .

وكذلك كانت مقالاته التى كان يتناول بها أحداث الساسة الداخلية تحليلا اجتماعيا يصطنع الأسلوب العلمى أكثر مما يتخذ الاسلوب الخطابى . وكأنما كان يرى فى العمل السياسى الذى أقدم عليه بإصدار هذه الصحيفة وجها من وجوه النشاط العلمى الذى انصرف إليه واستغرق فيه ولا يرى فى السياسة إلا صورة من صور علم الاجتماع الذى كان دائم النظر فيه والدرس له ومتابعة مايصدر من الدراسات عنه ، حتى ليبدو لنا أن كتابا من كتبه لم تكن لتفوته قراءته .

وقد حرص محمد فريد وجدى على هذه الصبغة العلمية لجريدته ، سواء فى أسلوب تحريرها ، أم فى موضوعاتها ، وسواء فيما يعالج من أمور السياسة ، أو ماكان يوسع له فى صفحاتها من دراسات علمية خالصة .

ومن ذلك جاء كثير من مقالاته فى صورة سلاسل ، تعالج كل سلسلة

منها بحثا مستقلا أو موضوعاً خاصاً . يتوفر عليه ، ويتناوله من نواحيه المختلفة ، كسلسلة مقالاته التي كتبها بعنوان : « الصحافة المصرية ، بحث انتقادي » ، ومقالاته التي كتبها عن مصطفى كامل عقب وفاته ، وقد بلغت نحو عشر مقالات ، ومقالاته التي كتبها في الرد على كتاب اللورد كرومر وقد تجاوزت العشرين مقالا .

ومن ذلك أنه كان يوسع صدر الدستور لمتابعة الحركة العلمية ، بترجمة بعض الكتب التي تصدر عن علماء أوربا ، وتعد من أمهات الكتب ، ككتاب ماكس نورداو : « الأكاذيب المتفق عليها في مدينتنا الحاضرة » فقد أخذ في ترجمة بعض فصوله منذ السادس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧ . ومما قاله في التقدمة لما شرع في ترجمته ، مما يدل على الاتجاه العلمي الذي كان حريصاً على أن يوفره لصحيفته : « وبما أننا في هذه الجريدة نود أن نطلع قراءنا على كل شيء ، سواء كان في السياسة أم العلم أم الفلسفة أم الدين ، فسنترجم لهم مايحسن أن يطلعوا عليه ، من هذا الكتاب ، ومن كل كتاب نافع ، في كل ضرب من ضروب العلم » .

ولم يلبث في السنة الثانية ، أن استحدث بابا ثابتاً ، بعنوان : « حركة العلم والفلسفة في القرن العشرين » .

هذه بعض مظاهر الطابع العلمي الذي اراد محمد فريد وجدي أن يسود صحيفته ، اعتزازاً بالصفة العلمية التي كانت أظهر مميزات شخصيته . وهي الصفة التي كان من أظهر مكوناتها عنده سعة الأفق ، وحرية الفكر ، واستقلال الرأي ، وكان لكل ذلك أثر في صحيفته : الدستور .

وقد قال الأستاذ العقاد أنه كان من ارحب خلق الله صدرا لحرية الرأي وحرية المناقشة[1].

---

(١) حياة قلم ، ص ٩٦ .

وكانت هذه الصفة أول انطباع انطبعت به نفسه عنه ، عقب لقائه الأول معه ، فى شأن العمل معه فى جريدة الدستور إبان انشائها ، فقد خرج من عنده وهو يقول لنفسه : إن أكبر خلاف بينى وبين كاتب كهذا لن يعوقنى عن العمل معه ثم يفسر هذا بقوله : « لأننى عجبت لحرية فكرة ، مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والحرج فى شؤن الدين والدنيا ، فما من فكرة قط كان يرى أنها قضية مسلمة ، وأنها لاتقبل المناقشة » . ثم يقول : « ودام عملى فى صحيفة الدستور من عددها الأول إلى عددها الأخير ، فما كاد أقول إن ما خالفته فيه أثناء هذه المدة أكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه »[1].

كما يقول فى موضع آخر ، فى الفصل الذى خصه به ، وتحدث فيه عن بعض خصائصه ، ومن ذلك استقلال الرأى ، فقال : « وأشرف مايكون صاحب المبدأ إذا كان استقلالة برأيه لايأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون .

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتبا ناشئاً ، خامل الذكر ليس لى بحق الشهرة أن يكون لى رأى مستقل مسموع . ولكنى كنت أخالفه فى بعض آرائه ، بل فى بعض مبادئه السياسية ، وبعض معتقداته عما وراء المادة وتحضير الارواح ، وأشهر ما كان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من سعد زغلول ؛ فلم يمنعنى ذلك أن أنشر فى الدستور مايخالف هذا الموقف؛ وأن احادث سعد زغلول حديثاً ينفى عنه كل مايعزوه اليه كتاب اللواء[2] .. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقده من تحضير الارواح ، وصارحنى غاية الصراحة فى أمر المتشابهات من

---

(١) حياة قلم ، ص ٦٥ .

(٢) نشر هذا الحديث فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٨ من جريدة الدستور .

العقائد والأحكام ؛ فلا أذكر أنني لحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء »(١)

ويذكر فى موضع آخر ما يشير إليه هنا من فسح الدستور صدره لرأى فى سعد زغلول ، مخالف لرأيه ورأى الحزب الوطنى ، إذ يقول :

« وكانت صحيفة الدستور لسانا ثانيا للحزب الوطنى بعد اللواء ، وكان موقف الحزب الوطنى معروفاً من سعد زغلول ، وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحرير اللواء ، ولكنى كنت أؤيد سعدا وأرد على ناقديه فى الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته فى هذا الموضوع »(٢)

وإذا كان محمد فريد وجدى يقدر - إلى هذا الحد — حرية الآخرين فى التعبير عن آرائهم ، وحقهم فى أن تنشر لهم فى صحيفته ، فإنه كان يرى من واجبه أن يجهر برأيه ، « ولو خالف القوة والكثرة وخالف أحب الناس إليه » كما يقول العقاد ، وإلا فقد خان الأمانة بسكوته عن الحق ، إرضاء لهذا ، أو مجاملة لذاك ؛ أو نظرا للعواقب التى قد يتعرض لها فى نفسه أو فى صحيفته ؛ أو لأن الرأى الذى يراه لذاته قد يحمل على غير محمله ، أو يوجه إلى غير وجهه ؛ أو ما إلى ذلك .

ومن ذلك ما حكاه الأستاذ العقاد من وقوفه وحده إلى جانب السيد توفيق البكرى ؛ فى تصرف اسخط الخديوى عليه ؛ بالرغم مما بينهما من تباعد شديد .

وخلاصة القصة — كما يحكيها الأستاذ العقاد — : « أن السيد محمد توفيق البكرى كان محنقا على الخديوى فى بعض السنين ؛ فمنع أصحاب

---

(١) رجال عرفتهم ، ص ١٦١ — ١٦٢ .
(٢) حياة قلم ص ٦٦ .

الطرق من الخروج بموكب المحمل ؛ تحية للامير فى ميدان الاحتفال . فخلا الميدان الا من الموظفين المدعوين ؛ وغضب الأمير لأنه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعود أن يشهده العام بعد العام ، فانتهر السيد توفيق . وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة : أنت قليل الأدب . . ! وغضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال وهو يقول للامير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الأدب . . . إنى وزير مثلك . وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك .

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد البكرى فى هذا الموقف . لأن الصحف الإسلامية لا تغضب الأمير من أجل شيخ الصوفية . ولأن الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين .

إلا صحيفة الدستور التى كان يصدرها فريد . فإنها أخذت بناصر البكرى . وهو من غير المقبولين عند صاحبها ، لاختلافهما فى المسلك والسيرة . ولكن صاحب الدستور نظر إلى شيء واحد فى هذا الخلاف وهو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها ، وأن الأمير لم يكن على حق فى غضبه على شيخ الصوفية لمنع حضورها[1].

وعن هذه الصفة التى كان محمد فريد وجدى حريصا عليها . مغاليا بها ، وكان يراها دافعه الأول إلى إصدار الدستور ، كانت أزمته الأولى مع الحزب الوطنى . وكان يرى أن صلته بهذا الحزب وعضويته فيه ، لا تقتضيان أن يخضع رأيه له . ويطوع قلمه للدفاع عما لا يراه من قراراته أو اتجاهاته ،

---

(١) رجال عرفتهم ، ص ٩٥ . وأنظر موقف بيت البكرى من الأسرة العلوية ص ١٠٠ — ١٠١ ، ص ١١٠ .

فعضوية الحزب شيء واستقلال الرأى شيء آخر. وهو لم ينشيء هذه الصحيفة لتكون صدى لجريدة اللواء أو صورة منها . ولكنه أنشأها لتكون وسطا بين الأحزاب . تحاكم الآراء جميعاً إلى العقل والمنطق والمبادىء التى لا جدال فيها .

وقد نشأت هذه الأزمة ولما يستكمل الدستور شهرا ونصف شهر منذ أول صدوره ، بعد اجتماع الجمعية العمومية للحزب الوطنى، وتكوين لجنته الإدارية وانتخاب مصطفى كامل رئيسا له ، يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ .

وفى هذا الاجتماع وافقت الجمعية العمومية على اقتراح رئيس الحزب «كتابة ثلاثة تلغرافات إلى السير كامبل باترمان والمستر فورمان وجريدة الديلى نيوز اعترافا بمساعيهم فى الحصول على العفو عن مسجونى دنشواى . . » فكان هذا القرار هو مثار هذه الأزمة .

ذلك أن فريد وجدى لم يوافق على هذا القرار ، وأعلن فى الدستور فى اليوم التالى ، رأيه فيه ، إذ قال — بعد إيراد محضر الجلسة ، والثناء على خطبة مصطفى كامل ، وقد وصفها بأنها صوت الأمة استخدم لسان مصطفى باشا كامل ، فعبر عن ضميرها أحسن تعبير وأبلغ بيان — :

« . . . ولكن الدستور الذى اختار لنفسه أن يكون جريدة حرة لا تملق لها بحزب من الأحزاب ، ليشرف على مجموع حركاتها من بعيد ، فيكون بينها واسطة للصلح ومانعه من التصادم الذى يجر إلى دمارها ودمار الأمة معها ، وحتى لا تعدم الأمة جريدة تقول الحق لها أو عليها ، فيرى أن من واجبه الملاحظة على هذه الخطبة ، كما لاحظ على خطبة رئيس حزب الإصلاح أمس . وإنى مهما كنت شاعرا للحزب الوطنى

وزعيمه بالميل والحب ، فلا أستطيع أن أنسى أنى ـ فوق ذلك ـ مسلم ، أقول الحق ولو على نفسى » .

وبعد هذه التقدمة التى بين فيها استقلال « الدستور» عن الأحزاب وإن ربطت بينه وبين الحزب الوطنى وزعيمه مشاعر الميل والحب ، قال :

« فالذى ألاحظه على الحزب الوطنى أمر هو من الخطارة بمكان ، وهو إرساله تلغرافات الشكر إلى السير كامبل بانرمان والمستر فورمان والديلى نيوز ، بمناسبة العفو عن مسجونى دنشواى ، فإن ذلك عند مبدئه على خط مستقيم ، لأن مبدأه قائم على اعتبار الإنجليز مغتصبين لأنفسهم سلطة لا تخولها لهم العهود ولا المواثيق التى احتلوا بلادنا بمقتضاها .

وإن من تلك السلطة المغتصبة الحقوق المخولة لخديوى مصر التى جاءوا لتأييدها . ولا شك أن من تلك الحقوق حق العفو عن المسجونين . فكيف يشكر الحزب الوطنى السلطة الغاصبة على ما فعلته ، بما هو من حقوق الخديوى المغصوبة . . . » إلى آخر ماأورده فى هذا ، وانتقل بعده إلى نقد ماجاء فى خطبة مصطفى كامل من اتهام بعض أبناء الوطن بأنهم « كاذبون مارقون خارجون على الأمة والملة وغاشون للوطن وأبنائه ، محاربون له فى أعز آماله » فقال :

« هذه التهم التى وجهها سعادة الزعيم ولم يعين وجهتها يعتبرها بعض الأفراد موجهة إليهم بالذات ، فيسعون فى مقابلته بمثلها ، ويوجهون نظر أنصارهم إليها ، فيتعصب معهم قوم ، ويتعصب معه آخرون ،

فتصبح الأحزاب ويلا على البلاد . ثم إنى لاأعتقد أن فى الأمة خائنا لوطنه ، ولا خارجا على الأمة والملة ، مادام كل العاملين يصرحون بأنهم مخلصون للوطن خادمون له . وقد نهانا ديننا عن أن نقول لمن آمن خداعا ونفاقا : لست مؤمنا ، فقال تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) . فكيف نقول لمصرى يصرح بأنه مخلص للوطن : إنك خائن مارق خارج على الأمة والملة ، اعتمادا على اعتبارات واهية ، او تهمة لا يمكن تحقيقها .

هذا مالاحظناه على لجنة الحزب الوطنى وسعادة زعيمه ، قياما بوظيفتنا أمام كل حزب يقوم فى مصر ، حتى لاتنطمس الحقائق أمام نظر الأمة فلا تجد لها جريدة حرة قوية تشدد النكير على كل متحرش بخصمه منا ، فان التنابذ ليس من مصلحة مصر فى شىء » .

كان طبيعيا أن تثور ثائرة أنصار الحزب الوطنى وشبابه خاصة لهذا الموقف الذى اتخذته الدستور من لجنة الحزب ورئيسه ، وقد كبر فى نفوسهم أن يكون صاحب هذا الموقف عضوا من أعضاء الحزب بدعوى حرية الرأى ، وأنه وضع صحيفته فى الموضع الوسط بين الأحزاب . فلا يكاد يظهر ذلك العدد ، ويقرأ القراء ذلك النقد ، حتى تتتابع رسائلهم عليه منكرين ساخطين مهددين متوعدين ، فكان ينشر رسائلهم ويرد عليها مؤكدا أنه عضو فى الحزب الوطنى ، وأن بينه وبين رئيسه صداقة أكيدة ، ولكن عضويته فى الحزب لاتمنعه من أن يجعل صحيفته فوق الأحزاب ، كما لاتمنعه من أن ينقد قرارا اتخذه ، او خطبة قالها زعيمه ، فذلك واجبه تجاه الوطن والحزب جميعا . فيقول مثلا فى احد هذه الردود :

« إنى لم انتبذ بالدستور مكانا بعيدا عن الأحزاب إلا ليكون واسطة

اتحاد واتفاق بينها ، ووافقا موقف المراقب لأعمالها ، حتى لاتحرم الأمة من جريدة غير متحزبة ، فتضيع الحقائق وتنطمس المعالم ، ولا يكون للطرفين وسط ، أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطنى ، اعترف بأن مبادئ هذا الحزب هى المبادىء الصحيحة التى يجب على كل مصرى أن يأتم بها ، ويتخذها له دستورا .

ولكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كونى من الحزب الوطنى ، معترفا بزعامة مصطفى باشا كامل ، لايمنع أن انتقد على خطبته ، وأن أبين للشبيبه منها موقع الخطأ والصواب على مايقتضيه واجب الصحافة ؟

هل تمنع الانجليزى إنجليزيته عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه ؟

إذن مافائدة الجرائد ، وما معنى التناصح والتعاون فى الخدمة ، والمساعدة على تقويم الآراء وتعديل المنازع ؟

فى أى مذهب وأى قانون يعد الانتقاد رذيلة أو تلونا أو بعدا عن الواجب ؟

ومافائدة إصدارى جريدة الدستور ، وفى مصر جرائد لاتحصى ، وأنا فى غنى عن الكسب من جهته ، إن كنت لاأملك حرية الانتقاد فيما اعتقدة واجبا ضروريا ؟

نحن أصبحنا فى عصر ننتقد فيه على سياسة سلاطيننا وملوكنا ، أفلا نستطيع أن ننتقد على إخواننا وأصدقائنا .

قد انتقد الدستور أول أمس على خطبة رئيس حزب الإصلاح ، فيما رآه محلا للنقد ، فماذا يعد نفسه ويعده الحق والناس لوسكت عن نقد خطبة رئيس الحزب الوطنى فيما يراه محلا له ؟

أنا أسست الدستور وأردت به تأسيس جريدة حرة عادلة رشيدة قرآنية المزاج ، لاتميل مع الهوى ، ولاتحيف على خصم، ولا تنابذ الأنداد، ولاتتعدى حدود الأدب ، ولاترى غير الحق سلطانا ، ولاسوى الفضيلة حلية .

وتاريخ حياة الدستور من أول ظهوره إلى اليوم يشهد بذلك ، فقد نابذته الجرائد وتحككت به تحككا يغرى الحليم بالغضب ، فكان العهد الذى عاهدت عليه نفسى قبل تحرير هذه الجريدة مانعا لى من مقابلتهم بالمثل ، لأن لى مع الحق شأنا يلهينى عن الالتفات للسفاسف .

هذا هو الدستور ، وهذا خلق صاحبه ، وماعاهد الله عليه؛ فمن رضينا بهذا الخلق حمدنا الله على نعمائه ، ومن نقم منا هذا المذهب فبيننا وبينه الحق فاصلا ، وماذا بعد الحق إلا الضلال . فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض .

يهددنى حضرة الأخ بسحب نقوده [1] ، وهو أقل مايهدد به مثلى ، وإنى أصرح لحضرته بأنى لو الجئت إلى أشد مايتصوره عقله على أن أخون عهدى لما تزحزحت عنه قيد شبر ، إلا إذا أراد الله فتنتى، به اعتصم وإليه أنيب » ،

بمثل هذا كان محمد فريد وجدى يدافع عن حقه فى أن يعبر عن رأيه ، وأن ينقد ما يستحق النقد فى حزبه ، كما ينقد سائر الأحزاب ، بل إنه يرى أن نقد حزبه أوجب عليه . وقد عرض فى موضع آخر لاعتذاره عن

---

(١) يشير بهذا إلى قول صاحب الرسالة : انى انصح لكم بان تستحضروا المال اللازم لشراء الأسهم التى بيد الشبيبة .

بعض مناصب اللجنة الإدارية حتى لا يحول ذلك بينــــه وبين أداء هذه الأمانة ، قائلا : « وقد رشحت لوظيفة سامية فى لجنته الإدارية فرفضت الترشيح ، ليتسنى لى أن أخدم الحزب الوطنى المبجل وسائر الأحزاب الأخرى التىاعتبرها فروعا منه . علما بأنى لولم أفعل ذلك اضطر الدستور بحكم الوظيفة أن يعد لسانا رسميا ثانياً للحزب الوطنى ، فلا يستطيع أن يبدى عليه أى انتقاد . ومن كان مثلى ممن يعلم أن الحق كبير، وأن الأفراد والأمم لاتصل إليه إلا بعد الجهد ، الجهيد . والكد الأكيد ، عسر عليه أن يتقيد بقيد الوظيفة عن قول ما يجيش بصدره بكل صراحة وبيان .

ولو كنت قبلت وظيفتى فى اللجنة الإدارية للحزب الوطنى، وجعلت دستورى واللواء سواء ، فما فائدتى من إصداره ، وصرف وقتى فى تحريره وتحبيره ؟ »

وبهذا كان الدستور صورة معبرة عن شخصية محمد فريد وجدى أصدق التعبير وأدقه .

أما الأمر الذى كان معقد الخلاف بينه وبين الحزب ، فقد عرض له فى هذه الردود غير مرة ، مقرراً أن ما رآه فيه إنما يصدر به عن مبادىء الحزب الوطنى ، إذ يقول من ذلك مثلا :

« ... ونحن معشر أعضاء الحزب الوطنى الذين وقفنا على سر رقى الأمم وهبوطها ، ومبلغ تأثير الاعتبارات على حركاتها وسكناتها ، نحب أن نرقى بالأمة من جهة إشعارها بكرامتها وبقوتها الذاتية ، وبإرادتها ، وبسلطتها الكامنة فيها ، وبإشعارها بأن خلاصها مرتبط بها ، ورفعتها معقودة بإرادتها ، بدون تداخل أحد فى ذلك ، لأنه لايتداخل المتداخل فى الأمة إلا لقتل شعورها،واستخلاص نخاعها ، واستصفاء صفوتها .

وحزب هذه مبادئه يجب عليه أن يقطع رجاء الأمة إلا عن نفسها ، وأن يبت حبال اتصالها إلا بذاتها ، ويؤيسها إلا من رحمة ربها ، لتستجيش قواها الكامنة ، وتستثير حيويتها النائمة .

فالحزب الوطنى لايجوز له أن يفتح للامة باب الاعتماد على غيرها من أى طريق كان ؛ وإلا فأى مزية له على حزب الإصلاح .

بل لو فتح للامة باب الشكر ، وباب الارتكان على الغير ، لكان حزب الإصلاح أكبر منه مزية ، فان من مبادئه تأسيس مودة بينه وبين بعض أصحاب النفوذ من كبار الإنجليز ليشفعوا للمصريين أمام الوزارة وفى البرلمان .

هذا من جهة عدم انطباق الشكر على المبادىء الأساسية للحزب الوطنى وأما من جهة عدم لياقته ، فان الإنجليز صرحوا بأن عرائض المصريين لا يعتد بها ، وأن رجاءهم فيها غير مقبول . وصبروا حتى يئس المصريون من قبول رجائهم ، ثم أصدروا العفو من تلقاء أنفسهم ، ليعرفوا المصريين أن لااحترام لإرادتهم ، ولاحرمة لصوتهم ، وقد طفحت جميع جرائدهم بهذه الجمل ، وسيحمل لنا البريد منها ما يخجل المصريين . فهل يقابل الإنجليز على هذا العمل بالشكر أم بالإغضاء التام وعدم الاهتمام به ؟ وإنى أصرح هنا بأن الوطنية الصحيحة تقضى على كل جريدة وطنية ألا تذكر خبر العفو عن مسجونى دنشواى ، وألا تحتفل به أقل احتفال .

وليعلم المصريون أن الإنجليز ما عفوا عنهم إلا ليحفظوا مركزهم فى وادى النيل أمام الدول ، فان بقاء مسجونى دنشواى فى السجن يوجب القيل والقال من جرائد أوربا ، وهو ضد مصلحة الإنجليز ، فعفت عنهم لتقطع هذه الأقاويل المقلقة لها ، ولولا ذلك لبقوا فى السجن إلى ما شاء الله .

فاذا كان هذا هو الحق الصراح الذى لاشية فيه ، فما معنى حمل الأمة على أن تشكر ما صدر بغير رجائها ، بل بما يدل على احتقار إرادتها .

إذا شفعت لبرىء عوقب خطأ أمام حاكم ، فرد شفاعتك وصرح بأنه لن يعفو عنه ما دمت تحدث نفسك بأن لك جاها يسمح لك بالشفاعة ، ثم بدا له أن يعفو عنه لسبب من الأسباب، فهل لك أن تشكره على ذلك ؟ وبأى وجه يقابل شكرك هذا على مالم يفعله لأجلك ؟

ولكن كل هذا الذى بذله محمد فريد وجدى فى توضيح موقفه وبيان رأيه لم يغن عنه إلا قليلا فى نظر كثير من شباب الحزب الوطنى الذين اعتبروه منشقا على الحزب ، بالرغم من كل ما قاله ، فقد كان ذلك أمراً غريبا عندهم « لأنهم لم يروا فى بلادنا جريدة تنتقد للوصول للحق المحض . بل الذى رأوه أن من أخلص لواحد الحب ، وجب عليه أن ينزهه فى كل ما يقول وكل مايفعل ، لايلصق به أدنى انتقاد ، ولو فعل توهم الناس أنه قد حدث بينهما شقاق ، فيظلون يبحثون عنه ليهتدوا إليه » ، كما يقول .

وهكذا كانت أزمة الدستور الأولى مع الحزب الوطنى ، بما ترتب عليها من انصراف كثير من قرائها ، من شباب هذا الحزب ، عنها ، وانصراف بعض الشبان الذين كانوا يشاركون ، متطوعين، فى تحريرها، عن هذه المشاركة .

ثم تكررت هذه الأزمات التى ترجع جميعها إلى حرص صاحبها على حرية الفكر واستقلال الرأى ، والمجاهرة به . إلى أن انفصم أخيراً مابينه

وبين الحزب الوطنى، فاذا هى تصدر يوم١٩ أبريل سنة١٩٠٩، وقد وضع تحت اسمها شعار لم يكن له من قبل ، وهو هذه العبارة : « لسان حال المقيمين على المبادىء الأصلية للحزب الوطنى »، وإذا هو يكتب فى اليوم التالى فصلا ضافيا ، فى صحيفتين كاملتين ، بعنوان : «السبب الذى حملنا على خلع بيعة الحزب الوطنى » شرح فيه — على حد قوله — العوامل التى دفعته إلى أن يقف أمام لجنة الحزب الوطنى موقف الخالع بيعتها المجاهر بالخروج عليها ، وبين فيه « الفارق بين مبادىء الحزب الوطنى ومواقفه الأصلية ، على ما تركها عليه مؤسسه الأول مصطفى كامل ، رحمه الله ، وبين المبادىء الحالية لهذه اللجنة » .

وهكذا انقطعت كل صلة ، أو شبة صلة ، كانت تصله بالحزب الوطنى «فانصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ؛ ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الأخرى» . كما يقول الأستاذالعقاد فى ذلكالفصل الذى كتبه عنه ، وقد ذكر تلك الأزمة الأولى التى أوردنا تفصيلاتها ، كما سجلتها أعداد الدستور فى إبانها ، مختلفةفى هذه التفصيلات وإن لم تختلف فى جملتها . ثم قال بعد ذلك : « فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ، ولم يقبل صاحبها أن يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها .

ومن المعونات التى عرضت عليه فى احرج أيام الأزمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبذلونها للدستور مشاهرة ، ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة واحدة ، وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الإسلامية » . فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض أن يجعل صحيفته لسانا للحزب إلا بشروطه التى يرتضيها ولو وافق الحزب على بقائها لسانا للجامعة الإسلامية .

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من شتى الجوانب — ومنها جانب الحاشية الخديوية — كان الرجل يتحامل على نفسه،وعلى القليل من موارد مؤلفاته ، لينفق عليها ، بعد تصغير صفحاتها واختصار إعدادها . فلما استنفد كل ماقدر على انفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمقدار غير يسير . . فأبت عليه نزاهة النفس أن يؤخر مليما واحدا لصاحب دين ، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها فى المكتبات . ومنها — على ماأذكر — معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة ، وثمنه مائة وعشرون قرشا ، فاتفق على حسبانه بثلاثة عشر قرشا . واشترط على التاجر أن يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الأجور والمرتبات ، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الاثمان»[1].

وبهذه الخاتمة التى تمثل أروع صور النبل انتهت حياة « الدستور » ، بعد عمر قصير لم يتجاوز العامين . ولكنه كان عمرا مباركا حافلا بما لاتفى به دراسة موجزة كهذه الدراسة .

ولعل هذه الصفحة من صفحات حياة فريد وجدى تظفر بمن يتوفر عليها ، ويجلوها ، فيجلو بذلك مثلا من أروع أمثلة الفكر الحر ، والرأى المستقل ، والضمير الطاهر ، والأفق الواسع الرحيب ،

وبانتهاء حياة « الدستور » تنتهى هذه المرحلة الفريدة فى حياة محمد فريد وجدى ، ليعود بعدها إلى نشاطه العلمى والأدبى الخالص متمثلا فى صور مختلفة ، نرجو أن نفرغ لدراستها ، بعد ، إن شاء الله .

---

(١) رجال عرفتهم ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٦٦ لسنة ١٩٧٠

المطبعة الفنية الحديثة

[illegible]

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع المقريزي بالزيتون - ت ٨٦٤٨٧١

